حقيقة التشيع ونشأته

تأليف

صباح علي البياتي

مقدّمة:

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين...

لقد حظيت مسألة حقيقة التشيّع ونشأته باهتمام الكثير من المؤلفينوالباحثين قديماً وحديثاً، وتضاربت فيها الآراء والأفكار، حيث كان معظم المؤلفين فيها ينظرون الى الشيعة على أنها فرقة من الفرق التي ظهرت في فترة الانقسامات العقائدية، التي شملت شرائح واسعة من الأُمة الإسلامية، بسبب الاختلافات العقائدية التي ظهرت كنتيجة للانقسامات السياسية بعد مرور أقل من نصف قرن على بدء الهجرة النبوية، وحدوث فتن أدت الى انقسام المسلمين الى معسكرات متحاربة يستبيح فيها المسلم دم أخيه، وصارت كل فرقة تعتقد أو توحي على أنها هي صاحبة الحق وخصمها هو المبطل، ولأجل ذلك صارت الفرق الإسلامية تتسابق لتجسيد نظرياتها، من خلال تأوّل بعض النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، ثم استفحل الأمر أكثر من ذلك عندما بدأ منظّرو هذه الفرق ومتعصّبوها بالتجرّؤ على الحديث النبوي الشريف،

فبدأت بوضع وتلفيق بعض الأحاديث التي تدعم وجهة نظرها من جهة، ووضع أحاديث أُخرى في ذم الفرق الأُخرى، فظهرت أحاديث مكذوبة من أمثال: "سيكون في أُمتي قوم لهم نبز يقال لهم الروافض، اقتلوهم فإنهم مشركون."

مع أنّ من المتعارف عليه عند المؤلفين في الفرق أن اسم الروافض قد اطلقه زيد بن علي بن الحسين(عليهم السلام) على الذين فارقوه أثناء ثورته على الأُمويين، وأن هذه المفردة وغيرها من الأسماء التي أُطلقت على الفرق المخالفة للجمهور لم تكن معروفة في زمن النبي(صلى الله عليه وآله).

ومن الأحاديث التي اكتسبت صفة شبه التواتر بعدما روتها كل الفرق حديث انقسام الأُمة الى ثلاث وسبعين فرقة، كلّها هالكة إلاّ واحدة، فحاولت كل فرقة أن تثبت أنها هي المعنيّة بالفرقة الناجية وأنّ ما عداها هالك في النار!

وممّا زاد الطين بلّة أنّ هذه العقائد قد بدأت تترسخ على مرّ الأيام، ودخلت هذه الأحاديث المكذوبة في المجاميع الحديثية وصارت تلقّن على انّها من كلام النبي(صلى الله عليه وآله)، مع أنّ هذه الأسماء والمصطلحات لم تكن معروفة في عصر الرسالة ومابعدها بقليل، ولم تبدأ بالانتشار إلاّ بعد أن بدأت المعارك الكلامية تحتدم بين المسلمين بعد انفتاحهم على الثقافات الأجنبية للأُمم التي دخلت

في الإسلام، أو التي تمّ ترجمة تراثها الى العربية، وبدأت كل مدرسة تكوّن لها فلسفة خاصة في العقيدة، مستفيدة من المصطلحات التي أغنتها بها فلسفة وفكر اليونان، والفرس، والهنود وغيرهم.

وعندما بدأ عصر التدوين بالازدهار، وأدلى المفكرون المسلمون بدلوهم في مختلف العلوم والفنون، كان أتباع مدارس الكلام قد بدأوا ينظّرون النظريات في الخلافة والإمامة وأُسلوب الحكم. وكانت الطامة عندما بدأت الكتابة في الفرق

والمذاهب والأديان، فقد كان معظم الكتّاب في هذا المضمار، كالشهرستاني والبغدادي وغيرهما من الجمهور، الذي يمثّل هوى ورأي الأكثرية في الأُمة الإسلامية، والذي اصطلح فيما بعد على تسميته بأهل السنة والجماعة، فكانت هذه المؤلفات كلّها تركز على نقطة معينة، وهي محاولة حصر الفرق الإسلامية بثلاث وسبعين فرقة، ثمّ بيان ضلال اثنتين وسبعين منها وإثبات أنّ الفرقة التي تمثّل الجمهور هي الفرقة الناجية، وأنّ بقية الفرق ـ ومنها الشيعة ـ هي ليست إلاّ فرقاً من المبتدعة الزائغة عن جادة الصواب. ولأجل إثبات ذلك فقد تضاربت الآراء في نشأة هذه الفرقة وعقائدها، فنسبت تارة الى أنها أتباع ابن سبأ وتستمد عقائدها من اليهودية، وتارة الى أنّها فارسية تستمد أفكارها من عقائد المجوس، وأُخرى

الى أنّها فرقة تكوّنت كردّ فعل على ما جرى على أهل بيت النبيّ(صلى الله عليه وآله)من بلاء، كواقعة كربلاء واستشهاد الحسين(عليه السلام)، ومن قبله استشهاد علي بن أبي طالب(عليه السلام).

وهكذا تضاربت الأقوال في تاريخ نشأة التشيّع، فعزا البعض نشأتها الى ما بعد حادثة السقيفة، وآخرون أرّخوها بعصر عثمان وأحداث الفتنة، وآخرون عزوها الى بدء معركة الجمل، أو صفين، أو الى ما بعد استشهاد الحسين(عليه السلام).

وكان سبب هذه النظرة الغائمة الى نشأة التشيع، هو عدم معرفة حقيقة التشيّع كخط يمثّل حقيقة الإسلام بكل مظاهره وعقائده، وأنه ليس حدثاً طارئاً على فكر الأُمة الإسلامية أو عقيدة مستوردة من إحدى الأُمم، بل هي عقيدة إسلامية بكل معنى الكلمة، بذر بذرتها الأُولى النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله)، واستمرت في النموّ يوماً بعد يوم يُغذّيها أهل البيت(عليهم السلام)، ويبيّنون ملامحها ويدرءون عنها الشبُهات ويحاربون المتطفّلين والمتسللين إليها، ويفضحون المتستّرين بأهل البيت(عليهم السلام) للوصول الى أغراض أُخرى تستهدف هدم الإسلام.

ومن هنا جاء الخلط عند البعض، فحاولوا أن ينسبوا عقائد أُولئك المتسللين الى الشيعة على أنها تمثّل الفكر والاتجاه والعقيدة الشيعية، ملصقين بالشيعة عموماً تهمة التحريض والتآمر على

الإسلام، حتى قالوا بأن التشيّع أصبح ملاذاً لكل الأفكار الهدّامة، التي تستهدف القضاء على العروبة والإسلام. على ذلك سار الأوّلون وتبعهم الآخرون.

ومن المؤسف حقاً أن ينبري الباحثون المعاصرون للطعن في الشيعة والتشيّع بالاعتماد على ما قيل فيهم من خصومهم، دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء البحث عن الحقيقة والاطلاع على عقيدة كلّ فرقة من خلال تراثها. وبخاصة فإنّ العصر الحديث قد أتاح كلّ ذلك وهيّأ أدوات البحث العلمي لكلّ من أراد الوصول الى الحقيقة بتجرّد.

إنّ سلامة النيّات هي التي تحدّد اتجاه الباحث عن الحقيقة، فإذا فقد هذا الشرط فإنّه لا أمل في ظهور الحقيقة على كتاباته.

على أن الزمن لم يعدم عدداً من الباحثين ـ ومن بينهم بعض المستشرقين ـ ممن لا يتوخّون سوى الحقيقة، فاكتشفوا وكشفوا عن وجه الحقيقة أو بعضها، كما انبرى مؤلفو الشيعة وباحثوها،الى تصنيف الكتب وتدوين أبحاثهم في هذا المجال، لكي تكون سابلاً لمن يريد أن يتصدى للبحث في هذا الموضوع طلباً للحقيقة.

وبحثنا هذا هو إحدى هذه المحاولات المتواضعة، عسى الله أن ينفع بها من يريد أن ينتفع أو يلقي السمع وهو شهيد، والله من وراء القصد.

الفصل الأوّل

الإسلام والتسليم

قال ابن منظور: الإسلام والاستسلام: الانقياد.

والإسلام من الشريعة: إظهار الخضوع واظهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي(صلى الله عليه وآله)، وبذلك يحقن الدم ويستدفع المكروه، وما أحسن ما اختصر به ثعلب ذلك فقال: الإسلام باللسان والإيمان بالقلب.

وأما الإسلام: فإنّ أبا بكر محمد بن بشار، قال: يقال فلان مسلم، وفيه قولان: أحدهما هو المستسلم لأمر الله، والثاني هو المخلص لله العبادة.(١)

ومن هنا يمكن أن نتبيّن أنّ هناك فرقاً قد لا يبين لأوّل وهلة بين الاستسلام لأمر الله، وبين الاخلاص للعبادة، فالمعنى الأوّل هو

١-لسان العرب: ٢٩٣/١٢.

أكثر استيعاباً لحقيقة الإيمان الذي يحكم علاقة الفرد بربّه، فإنّ الاستسلام لأمر الله يتضمن التعبّد المطلق لكل أوامر الله ونواهيه، دون أن يكون للفرد أي إرادة أمام إرادة المولى سبحانه وتعالى، وتبعاً لذلك فإنه يخضع خضوعاً تاماً لكلّ ما جاء به النبي(صلى الله عليه وآله)، باعتباره مبلّغاً عن الله، وإيماناً منه بأنّ النبيّ لا ينطق عن الهوى، بل بوحي من الله سبحانه، وهذا ينسحب على كلّ ما يأمر به أو ينهى عنه النبي(صلى الله عليه وآله)، سواء ما كان يتعلق بالأحكام التشريعية وأداء العبادات،

أو حتى ما يتعلق بالخصومات والخلافات التي قد تقع بين أفراد الأُمة، وذلك عملاً بقوله تعالى) :وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)١((، وقوله تعالى) :فان تنازعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر)٢((، وقوله تعالى) :فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلّموا تسليما).(٣)

فمن هنا يتبين أن الإسلام الذي يريده الله سبحانه من عباده، هو المتضمن لكل معاني التسليم لقرارات النبي(صلى الله عليه وآله)، حتى لو كانت هذه المقررات ممّا يخالف ما تهواه نفس الإنسان وتصبو إليه، أو

١-الحشر (٥٩): ٧.

٢-النساء (٤): ٥٩.

٣-النساء (٤): ٦٥.

كان الفرد يعتقد أنّ المصلحة تقتضي غير ذلك، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنّ التسليم لأمر الله ورسوله مقدّم على مقتضيات المصلحة، التي يراها الفرد باجتهاد منه أو تبعاً لبعض الأعراف السائدة، وأنّ الإسلام الحقيقي يجب أن يتضمن الخضوع والاستسلام المطلق لإرادة النبي(صلى الله عليه وآله) أيضاً،باعتباره مبلّغاً عن الله وأن طاعته هي امتداد لطاعة الله سبحانه.

أما الاصطلاح الثاني الذي هو الاخلاص لله في العبادة، فهو يتضمن اخلاص التعبد لله في المسائل الشرعية التي تتضمن العبادات المتعلقة بأداء الجوارح، كالصلاة والصوم والحج وما الى ذلك، وهي في مفهومها أضيق من مفهوم التسليم المطلق لأوامر النبي(صلى الله عليه وآله) ونواهيه، لأنّ التعبد بالأحكام الشرعية قد يتساوى فيه كثير من الناس ويجتهدون فيه، إلاّ أن الفرد منهم قد لا يتحمل التعرض لأي فتنة، أو بلاء، أو قد لا يسلم لحكم يعتقد أنّ المصلحة في غيره.

لقد عبّر القرآن عن هذين المفهومين وميّز بينهما، فسمى الأوّل إيماناً والثاني إسلاماً، عندما خاطب الأعراب، بقوله) :قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في

قلوبكم)١((، وهذا يعني أن الأعراب ربّما لم يقصّروا في تأدية التكاليف الشرعية المفروضة عليهم. إلاّ أنّ القرآن قد نبّههم على أنّ ذلك ليس هو الإيمان الذي يتضمّن معنى التسليم المطلق لله تعالى وللرسول(صلى الله عليه وآله)، وقد تبيّن ذلك من مواقفهم، أو مواقف البعض منهم في غزوة تبوك، مثلاً عندما تخلّفوا عن النبي(صلى الله عليه وآله)، ونزل القرآن بذمّهم،

لأنهم اعتقدوا المصلحة في عدم الامتثال لأمر النبي(صلى الله عليه وآله)وظنّوا أن في الأمر سعة وتساهلاً قد يبرّر تخلّفهم، فنزل القرآن بتوبيخهم وتوبيخ بعض الصحابة الذين نهجوا نهجهم، وكان موقف القرآن شديداً منهم.

الاجتهاد في مواقف بعض الصحابة

إنّ استعراض تاريخ فترة الرسالة يؤكد لنا حقيقة مفادها: أنّ الصحابة لم يكونوا كلّهم على درجة واحدة من التسليم لأوامر النبي(صلى الله عليه وآله)، فقسم منهم كان يتلقى أوامر النبيّ ونواهيه ووصاياه على أنها من المسلّمات التي لا ينبغي تجاوزها بأي شكل من الأشكال ـ وهم أقلية ـ بينما كان هناك من يرى أنّ تعليمات النبي(صلى الله عليه وآله)يمكن مناقشتها[٢])، بل وحتى مخالفتها إذا اعتقدت ضرورة

١-الحجرات (٤٩): ١٤.

٢و (٢) السيرة النبوية والآثار المحمدية بهامش السيرة الحلبية: ١/ ٣٧٠ ـ ٣٧٣.

تستدعي ذلك[١])، أو أنّ في ذلك مصلحة، أو حتى من باب التنزّه عن بعض ما يفعله النبيّ(صلى الله عليه وآله)، وقد جاءت بذلك أخبار كثيرة، منها:

أن النبيّ(صلى الله عليه وآله) عندما خرج بأصحابه في طلب قافلة أبي سفيان، وما كان من تدبير أبي سفيان وقدرته على النجاة من أيدي المسلمين، وما أعقبه من خروج مشركي مكة للدفاع عن أموالهم، حيث وجد المسلمون أنفسهم وجهاً لوجه أمام قريش في خيلها وسلاحها، وكانت رغبة النبيّ(صلى الله عليه وآله) واضحة في مناجزة القوم، خصوصاً وأنّ زعماء المشركين وعلى رأسهم أبو جهل كانوا مصرّين على مقاتلة المسلمين(وظنّهم انّها) فرصة لاستئصال شأفتهم والاستراحة من النبي(صلى الله عليه وآله) ومن دعوته الى الأبد، وكان رجوع النبي(صلى الله عليه وآله) مع المسلمين دون مناجزة يعدّ فراراً من القتال، بل ربّما شجّع المشركين على غزو المسلمين في عقر دارهم، وفي ذلك خطر عظيم. ولكن الصحابة رغم معرفتهم برغبة النبيّ(صلى الله عليه وآله) في القتال، إلاّ أن الكثير منهم لم يؤيد الفكرة، حتى قال له بعضهم: هلاّ ذكرت لنا القتال حتى نتأهّب له! إنا خرجنا للعير، وفي رواية: يا رسول الله! عليك بالعير ودع العدو، فتغيّر وجه رسول الله(صلى الله عليه وآله). قال أبو أيوب: وفي ذلك أنزل الله تعالى) :كَمَا أخرَجَكَ رَبُّكَ

مِن بيتِكَ بِالحَقِّ وإنّ فَرِيقاً مِن المُؤْمِنينَ لَكَارِهُون).(١)

وحينما خرج النبيّ(صلى الله عليه وآله) الى بدر ـ وكان ذلك في شهر رمضان ـ فصام يوماً أو يومين ثم رجع ونادى مناديه: يا معشر العصاة، إني مفطر فافطروا! وذلك أنه كان قد قال لهم قبل ذلك: "افطروا" فلم يفعلوا.(٢)

بل إنّ البعض كان موقفه مثبّطاً للنبيّ(صلى الله عليه وآله) في عزمه على القتال، فلما استشار النبي(صلى الله عليه وآله) أصحابه قام عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله! إنّها والله قريش وعزُّها، والله ما ذلّت منذ عزّت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تُسلم عزّها أبداً ولتقاتلنّك. فأعرض عنه النبي(صلى الله عليه وآله)...(٣)

وفي الطرف الآخر نجد صحابة آخرين كان موقفهم مغايراً لموقف أُولئك، فإنّ المقداد بن عمرو قام، فقال: يار سول الله! امض لأمر الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيّها) :**فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون**)٤))، ولكن

١-السيرة النبوية والآثار المحمّدية، لأحمد زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية: ٣٧١/١، والآية في سورة الانفال: ٥.

٢-المغازي للواقدي: ٤٧/١ ـ ٤٨.

٣-المصدر السابق.

٤-المائدة (٥): ٢٤.

اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا الى برك الغماد لسرنا معك، فقال له رسول الله(صلى الله عليه وآله)خيراً.

وقام سعد بن معاذ من الأنصار فكان ممّا قاله للنبي(صلى الله عليه وآله):... إنّا قد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ كلّ ما جئت به حقّ، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامض يا نبيّ الله، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منّا رجل، وصِلْ من شئت، واقطع من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحبّ إلينا ممّا تركت، والذي نفسي بيده ما سلكت هذا الطريق ومالي بها من علم، وما نكره أن يلقانا عدوّنا غداً، إنّا لصُبّر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك.(١)

فمن هذه الكلمات تتبيّن مواقف الصحابة التي كانت تتأرجح بين التسليم وعدمه.

وبالإضافة الى ذلك فقد بدأت تظهر على مواقف بعض الصحابة نظرة جديدة تتمثل بتغليب آرائهم على رأي النبي(صلى الله عليه وآله)، أو بتعبير آخر الاجتهاد في مقابل النصّ النبوي، والذي قد يؤدي بالنتيجة الى عدم الامتثال لأمر النبي(صلى الله عليه وآله)، وقد بدا ذلك في مناسبات عديدة، فعن

١-المغازلي للواقدي: ٤٧/١ ـ ٤٨.

أبي سعيد الخدري: أنّ أبا بكر جاء الى رسول الله(صلى الله عليه وآله) فقال:

يا رسول الله إني مررت بوادي كذا وكذا فإذا رجل متخشّع حسن الهيئة يصلي، فقال له النبيّ(صلى الله عليه وآله): "اذهب فاقتله."

قال: فذهب إليه أبوبكر فلمّا رآه على تلك الحال كره أن يقتله، فرجع الى رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قال: فقال النبي(صلى الله عليه وآله) لعمر: "اذهب فاقتله". فذهب عمر فرآه على تلك الحال التي رآه أبو بكر، فكره أن يقتله، فرجع، فقال: يا رسول الله اني رأيته يصلّي متخشّعاً فكرهت أن أقتله. قال: "يا علي إذهب فاقتله" قال: فذهب عليّ فلم يره، فرجع علي، وأخبر رسول الله بأنّه لم يره. فقال النبي(صلى الله عليه وآله): "إنّ هذا وأصحابه يقرأون القرآن ما يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم في فوقه فاقتلوهم، هم شرّ البرية.(١)"

وفي صلح الحديبية أعطى النبيّ(صلى الله عليه وآله) لقريش كل ما طلبوا منه، بينما صرّح بعض الصحابة بأنه إعطاء الدنيّة، رغم أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) قد أمضاه وهو أعلم بالمصلحة فيه من غيره، ولا يمكن تصوّر أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) يقدم على أمر فيه ضرر على الإسلام والمسلمين، ورغم ذلك فإنّ بعض الصحابة اعتقد أنّ له الحقّ في الاعتراض على القرار

١- مسند احمد: ١٥/٣.

النبويّ، حتى قال عمر بن الخطاب للنبي(صلى الله عليه وآله) معترضاً ـ كما ذكرالبخاري عن لسان عمر نفسه ـ فقلت: ألستَ نبيّ الله حقاً؟! قال: "بلى"، قلت: ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟! قال: "بلى"، قلت: فَلِم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟!

قال(صلى الله عليه وآله): "إنّي رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري". قلت: أوليس كنت تحدّثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟! قال: "بلى، أفأخبرتك أنّا نأتيه العام؟" قلت: لا، قال: "فإنّك آتيه ومطوّف به". قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبيّ الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيّها الرجل، إنّه لرسول الله وليس يعصي ربّه وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوالله إنّه لعلى الحق.

فقلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنّك آتيه ومطوّف به. قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً.

فلمّا فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) لأصحابه: "قوموا فانحروا ثم احلقوا". قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلمّا لم يقم منهم أحد دخل على أُمّ سلمة فذكر لها مالقي من الناس، فقالت أُم سلمة: يا نبيّ الله، أتحبُ ذلك؟ أُخرج ثم لا تُكلّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج

فلم يكلّم أحداً منهم حتى فعل ذلك. نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاًغمّاً.(١)"...

وهذه الحادثة تدلّنا على غرابة مواقف بعض الصحابة، فبعد أن أخبر النبيّ(صلى الله عليه وآله)عمربن الخطاب بأنّه رسول الله(صلى الله عليه وآله) الذي لا يعصي ربّه، وكفى ذلك في إثبات صحة موقف النبيّ، وبعد أن أخبره أيضاً بأنّه سيأتي البيت ويطوف به في غير هذا العام، فإنّ جواب النبي(صلى الله عليه وآله) لم يكن كافياً لإقناع عمر بضرورة الإمتثال دون مناقشة، إذ إنه ذهب الى أبي بكر وأعاد عليه نفس المسألة، وتبدّى الأمر بشكل أفظع حين امتنع الأصحاب من طاعة النبي(صلى الله عليه وآله) عندما أمرهم بالنحر والحلق!

وتكرّرت مخالفات الصحابة لأوامر النبيّ(صلى الله عليه وآله) بعد ذلك حتى بدأ النبيّ(صلى الله عليه وآله) يشكو علناً مما يلقاه من الأذى من مخالفاتهم واعتراضاتهم المتكررة عليه.

فعن عائشة أنّها قالت: قدم رسول الله(صلى الله عليه وآله) لأربع مضين من ذي الحجة أو خمس فدخل عليَّ وهو غضبان، فقلت من أغضبك يا رسول الله؟ أدخله الله النار! قال: "أوما شعرت أ نّي أمرت الناس بأمر فإذا هم يتردّدون، ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي معي

١-صحيح البخاري: ٨١/٢، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، صحيح مسلم: باب صلح الحديبية.

حتى اشتريه ثم أحلّ كما حلّوا.(١)"

وجاء عنها أيضاً أنّها قالت :صنع النبي(صلى الله عليه وآله) شيئاً ترخّص فيه، وتنزّه عنه قوم فبلغ ذلك النبي(صلى الله عليه وآله)فحمد الله ثم قال: "ما بال أقوام يتنزّهون عن الشيء أصنعه؟! فوالله انّي أعلمهم بالله وأشدّهم له خشية.(٢)"

فكأنّ القوم كانوا يجهلون أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) كان أشدّهم تقوى ومخافة من الله! وما بالهم يظنّون به الظنون ويتوهمون أنّ فعله قد يكون مخالفاً لأمر الله حتى يتنّزهوا عنه ويستنكفوا منه!

وبلغ الأمر بالبعض الى مخالفة أوامره ونواهيه الصريحة، سواء منها في صغائر الأُمور أو أكابرها، وكأنّهم ظنّوا أنّ لهم الحقّ في التصرف والافتاء بما يخالف قول النبيّ(صلى الله عليه وآله)، فعن جابر أنّه قال: نهانا رسول الله(صلى الله عليه وآله)أن نطرق النساء، فطرقناهن بعد[3]!

-١صحيح مسلم: ٣٤/٤، سنن ابن ماجة: ٩٩٣/٢، مسند احمد: ٢٨٦/٤ و١٧٥/٦، وفي رواية البراء بن عازب أن النبي قال: "اجعلوا حجكم عمرة" فقال الناس: يا رسول الله، كيف نجعلها عمرة وقد أحرمنا بالحج؟ قال: "انظروا الذي آمركم به فافعلوه"، فردّدوا عليه القول... الخ. قال الذهبي: هذا حديث صحيح من العوالي، أخرجه ابن ماجة، سير اعلام النبلاء: ٤٩٨/٨.

-٢صحيح البخاري: ١٤٥/٨.

-٣المصنف لابن أبي شيبة: ٧٢٧/٧، مسند الحميدي: ٥٤٣/٢، مسند أحمد: ٣٠٨/٣، مسند أبي يعلى: ٣٧٣/٣.

تفاقم الأمر

لقد أدّت جرأة بعض الصحابة على أوامر النبي(صلى الله عليه وآله) وتعليماته، الى استفحال الظاهرة حتى تكوّنت قناعة لدى البعض بأنّهم ملزمون باتّباع النبيّ(صلى الله عليه وآله) فيما يبلغهم من الوحي عن الله سبحانه، وفيما يتعلق بأُمور العبادة فقط، أما الأُمور التي تتعلق بالقيم الاجتماعية الموروثة، أو ببعض العادات والأعراف، أو حتى فيما يتعلق بأُمور التنظيم السياسي وشكل نظام الحكم من بعد النبي(صلى الله عليه وآله)، فقد رأوا أنّ من حقّهم أن يبتّوا فيها بأنفسهم وأن يخالفوا النصوص النبويّة إذا ماتصوروا أنّ المصلحة في غيرها. وقد ظهر ذلك جليّاً في موقفهم من تأمير أُسامة بن زيد، رغم أنّ النبي(صلى الله عليه وآله)كان هو الذي قد ولاّه قيادة الجيش وعقد له اللواء بيديه الشريفتين، فإنّ ذلك لم يمنع بعض الصحابة من الاعتراض على فعل النبي(صلى الله عليه وآله)، والطعن في إمارة أُسامة زعماً منهم أنّ حداثة سنّه لا تؤهّله لكي يتأمّر على مشيخة المهاجرين والأنصار، وفيهم أمثال أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وغيرهم![1]

-١الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٩٠/٢، تاريخ اليعقوبي: ٧٤/٢ ط بيروت، الكامل لابن الأثير: ٣١٧/٢، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ٥٣/١، السيرة الحلبية: ٢٠٧/٣، السيرة النبوية لدحلان بهامش السيرة الحلبية: ٣٣٩/٢، كنز العمال: ٣١٢/٥، انساب الأشراف: ٤٧٤/١، ترجمة أُسامة من تهذيب تاريخ دمشق.

حتى خرج النبيّ(صلى الله عليه وآله) مغضباً، فصعد المنبر وهو في مرضه الشديد وقال:

"أيّها الناس، ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أُسامة؟! ولئن طعنتم في تأميري أُسامة، لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله، وأيمُ الله إنّه كان لخليقاً بالإمارة، وإنّ ابنه من بعده لخليق بها.[1]"

وعلى الرغم من تشديد النبيّ(صلى الله عليه وآله) أوامره بالتعجيل ببعث أُسامة، فقد ظلّ الناس يتثاقلون عنه حتى توفي النبي(صلى الله عليه وآله) قبل أن يغادر البعث مواقعه في الجرف، بل وكاد البعث أن يُلغى، أو على الأقل يُغيّر أميره.(٢)

لقد وصل موقف بعض الصحابة في عدم الامتثال لأوامره(صلى الله عليه وآله)الى ذروته وذلك قبيل وفاة النبي (صلى الله عليه وآله)بفترة وجيزة، فقد أخرج جمع من المحدّثين والمؤرّخين وأرباب السّير، ـ واللفظ للبخاري ـ عن ابن عباس، أنّه قال: لما حُضِر رسول الله(صلى الله عليه وآله) وفي البيت رجال

١-الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٩٠/٢، تاريخ اليعقوبي: ٧٤/٢ ط بيروت، الكامل لابن الأثير: ٣١٧/٢، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ٥٣/١، السيرة الحلبية: ٢٠٧/٣، السيرة النبوية لدحلان بهامش السيرة الحلبية: ٣٣٩/٢، كنز العمال: ٣١٢/٥، انساب الأشراف: ٤٧٤/١، ترجمة أُسامة من تهذيب تاريخ دمشق، وانظر المغازي للواقدي: ١١١٩/٣.

٢-تاريخ الطبري: ٢٢٦/٣، الكامل: ٣٣٥/٢، السيرة الحلبية: ٢٠٩/٣.

فيهم عمربن الخطاب، قال النبيّ(صلى الله عليه وآله): "هلمّ أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده" فقال عمر: إنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله.

فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم النبيّ(صلى الله عليه وآله) كتاباً لا تضلّوا بعده، ومنهم من يقول ما قاله عمر، فلمّا أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي(صلى الله عليه وآله)، قال لهم رسول الله(صلى الله عليه وآله): "قوموا عنّي" فكان ابن عباس، يقول: إنّ الرزية كلّ الرزية ما حال بين رسول الله(صلى الله عليه وآله)وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم.(١)

وفي لفظ آخر للبخاري عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال: يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتدّ برسول الله(صلى الله عليه وآله) وجعه فقال: "ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً"، فتنازعوا ـ ولا ينبغي عند نبيّ تنازع ـ فقالوا: ما شأنه؟! أهجر؟ استفهموه، فذهبوا يردّون عليه فقال:دعوني فالذي أنا فيه خير ممّا تدعوني إليه، وأوصاهم بثلاث، قال: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أُجيزهم" وسكت عن الثالثة، أو قال فنسيتها.(٢)

١-صحيح البخاري: ٢٢/١، كتاب العلم.

٢-صحيح البخاري: ١٣٧/٥ باب مرض النبيوفاته، ووردت بلفظ مقارب في الجزء الرابع ؤصفحة ٦٥ من صحيح البخاري كتاب الجزية باب إخراج اليهود من جزيرة العرب، والسكوت عن الوصية الثالثة من جانب ابن عباس أو إدعاء سعيد نسيانها توحي بخطوره موضوعها وهو ما سوف يتبيّن في الأبحاث القادمة، وانظر أيضاً صحيح البخاري: ٦١/٨، كتاب الاعتصام

بالكتاب والسنّة باب كراهية الخلاف، وصحيح مسلم: ٧٥/٥ كتاب الوصية، ومسند أحمد: ٣٥٦/٤ ح ٢٩٩٢، بسند صحيح وغيرها من المصادر.

الصفحة ٢٩

ولا أدري أيّ مصلحة كانت في منع النبي(صلى الله عليه وآله)، من كتابة ذلك الكتاب الذي كان سيعصم الأُمة من الضلال، حتى أنّ ابن عباس سمّاه بالرّزية وكان يبكي حتى يبلّ الحصى بدمعه، كما تذكر بعض الروايات، إلاّ أن يكون موضوع الكتاب متعلقاً بأمر يعتبره البعض متنافياً مع ما يراه من المصلحة، كما سوف يتبيّن لنا فيما بعد.

الصفحة ٣٠

الصفحة ٣١

الفصل الثاني

المرجعية الدينية

إنّ المرجعية الدينية عند الأُمم السالفة كانت منحصرة في الغالب بأيدي رجال الدين أو الكهنة إذا صح التعبير، وكانت السلطة الزمنية منفصلة عن السلطة الدينية، فكان فراعنة مصر رغم اعتبارهم أنفسهم من نسل الآلهة، إلاّ أنّ ذلك كان في الحقيقة لقباً تشريفياً لهم أكثر منه واقعياً، فالملوك لم يكونوا يتولون من الأُمور الدينية إلاّ بعض أشكال شعائرها التي كان الكهنة في الغالب يقومون بتحضير طقوسها، وكان هؤلاء الكهنة هم المرجع الديني لأهل البلاد، وكان ملوك مصر يحكمون في الغالب في الأُمور التي تتعلق بسياسة الملك وإدارة البلاد، بينما كان الكهنة في معابدهم يتولون الأُمور المتعلقة بشعائرهم الدينية، ويقال مثل ذلك عن معظم الأُمم الأُخرى.

وفي الديانات السماوية تحوّلت الوظائف الدينية الى أيدي

الصفحة ٣٢

الحاخامات في الديانة اليهودية، والبابوات في الديانة المسيحية، حيث كانت السلطة السياسية منحصرة في أيدي الساسة الذين كانوا يتولون ادارة البلاد، وإن كانوا ـ حرصاً على موالاة الشعب ـ يتظاهرون بتمسّكهم بتعاليم رجال الدين ويضفون عليهم هالات التقديس والتعظيم، تاركين لهم التصرف في الشؤون المتعلقة بالدين، بينما ينصرفون هم الى تدعيم ملكهم وممارسة سلطاتهم الزمنية.

وعندما هاجر النبيّ(صلى الله عليه وآله) الى يثرب تشكّلت نواة دولته الإسلامية فيها، وأصبح النبيّ(صلى الله عليه وآله) جامعاً للسلطتين الدينية والزمنية معاً، فهو المعلّم والمرشد في كل ما يتعلق بأُمور الشريعة، وبيان الأحكام الشرعية داعياً أتباعه

للاستنان بسنّته في كلّ ماله علاقة بالدين، حتى قال لهم: "صلّوا كما رأيتموني أُصلي"، وهو في الوقت ذاته القائد السياسي الذي ينظّم شؤون دولته، كما تجلّى ذلك في الصحيفة التي كتبها في بدء هجرته وعلى أساسها تمّ تنظيم العلاقة بين أتباعه من جهة، وبينهم وبين سكان المدينة الآخرين ممن لم يتّبعوه كاليهود وغيرهم من جهة أُخرى، وكان هو القائد العام للجيش الذي قاد المعارك الكبرى، وكان يبعث السرايا ويُؤمّر عليها بعض أصحابه كلّما دعت الحاجة الى ذلك، فكان النبيّ(صلى الله عليه وآله) هو قائد المجتمع بكلّ معنى الكلمة، الماسك بزمام السلطتين معاً.

لقد فهم المسلمون من تدابير النبي(صلى الله عليه وآله) أنّ هذا الأمر مستمر بعده، وأنّ الذي سوف يخلفه يجب أن يقتدي به، فهو الإمام المتّبع الموكّل بحفظ الشريعة المتمثّلة بالحكم بكتاب الله وما في سنّة النبي(صلى الله عليه وآله)، الى جانب كونه الحاكم الذي يدير أُمور الدولة الإسلامية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، فالدين في الإسلام لا ينفصل عن السياسة العامة للدولة الإسلامية، والذي يخلف النبيّ(صلى الله عليه وآله) ينبغي أن يعمل وفق هذا الخط، وبما أنه لا يمكن أن يتساوى أفراد المجتمع الإسلامي في درجة الكفاءة للقيام بمثل هذه المهمة البالغة الخطر، فلابد إذاً من أن تجتمع في الخليفة صفات ومواهب خاصة تمكّنه من القيام بعمله وحفظ الشريعة وصيانة الدولة من أيٍّ خطر يتهددها في كلّ مجال.

وإذا كانت بعض الشؤون المتعلقة بالسلطة الزمنية قابلة للاجتهاد فيها حسب مقتضيات المصلحة، فإنّ الأُمور المتعلقة بالناحية الشرعية لا تقبل مثل هذا الاجتهاد الذي قد يقود الى الاستخفاف والتهاون بالشريعة شيئاً فشيئاً، ممّا يعرّض المرجعية الدينية الى عواصف قد لا تصمد أمامها على مرّ الأيام فينشأ من هناك الخطر من وقوع التحريف في هذه الشريعة، وبالتالي ضياع كثير من الأحكام الشرعية، وتكثر العثرات في تطبيقها. لذا يمكن القول بأنّ للمرجعية الدينية شروطاً لا يمكن لمن لم تتوفر فيه أن

يتصدى لتولّي هذه المرجعية بما يحمله ذلك من الخطر عليها، ومن هنا تبرز أهمية أن نعرف ما إذا كان النبيّ(صلى الله عليه وآله)قد حدّد خطوط هذه المسألة، وبيّن شروط المتصدّي لها، ونصّ على شخص أو أشخاص بعينهم، أم أنّه ترك الأمر للأُمة لكي تقرّر ذلك وتبيّن الأصلح للتصدّي لهذه المرجعية حسب مقتضيات ما تراه من المصلحة.

شروط المرجعيّة الشاملة:

بعد ما اتّضحت أهمية المرجعية الدينية في حفظ الشريعة، أصبح من الضروري بيان الشروط الواجب توفّرها فيمن يتصدّى لهذه المرجعية، وهي تتمثل في الكفاءة والموهبة التي يملكها المتصدّي لهذا الأمر، وهذا بدوره يتطلب وجود نصّ أو نصوص من النبيّ(صلى الله عليه وآله)على وجود هذه الكفاءة في المنصوص عليه بحيث لا تصبح هذه المسألة موضع نقاش وجدل بين أفراد الأُمة بحيث يؤدي الى تشتت الآراء ووقوع الخلاف الذي نهت الشريعة عنه.

الكفاءة أولى شروط المرجعية الشاملة:

عندما نستعرض تاريخ الدعوة الإسلامية والسيرة النبوية الشريفة، تطالعنا جملة من النصوص أشار فيها النبيّ(صلى الله عليه وآله)الى من تتوفر فيه هذه الكفاءة، فقد أخرج المحدّثون أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله)بعد رجوعه من حجة الوداع، نزل في مكان من الجحفة يقال له غدير خم، فأمر بدوحات هناك فقمِّمن،

ثم جعل له من أقتاب الإبل شبه المنبر، فرقيه حتى رآه الناس، فكان ممّا قال لهم:

"كأنّي دُعيت فأجبت، إنّي قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض" ونصّت بعض الروايات على أمر مهمّ هو: "ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا.(١)"

قال ابن حجر الهيثمي المكّي ـ بعد إيراده لعدة روايات في حديث الثقلين ـ:

ثم اعلم أنّ لحديث التمسك بذلك طرقاً كثيرة وردت عن نيّف وعشرين صحابيّاً، وفي بعض تلك الطرق، أنّه قال ذلك بحجة الوداع بعرفة، وفي أُخرى أنه قاله بالمدينة في مرضه وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وفي أُخرى أنه قال ذلك بغدير خم، وفي أُخرى أنّه قاله لما قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف... ولا تنافي. إذ لا مانع من أنه كرر عليهم ذلك في تلك المواطن وغيرها اهتماماً بشأن الكتاب

١- المستدرك: ١٠٩/٣، ٥٣٣، وصححه ووافقه الذهبي في التلخيص، وانظر مسند أحمد:

١٨١/ ٥، ١٨٩، جامع الترمذي: ٣٠٨/٢، ٣٢٨/٥ ح ٣٨٧٤، خصائص أمير المؤمنين(عليه السلام)للنسائي: ٢١، كنز العمال: ٤٤/١، ٤٧، ٤٨، صحيح مسلم: باب فضائل علي(عليه السلام)، سنن الدارمي: ٤٣١/٢، الصواعق المحرقة: ٨٩، الطبقات الكبرى لابن سعد القسم الثاني: ٢/٢، فيض القدير للمناوي: ١٤/٣، حلية الأولياء: ٣٥٥/١، ح ٦٤، مجمع الزوائد: ١٦٣/٩، ١٦٤.

العزيز والعترة الطاهرة.(١)

يمكننا أن نستخلص من نصوص الحديث ومن تعليق ابن حجر: أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله)قد بيّن بوضوح من تتمثّل فيه المرجعية الدينية من بعده، ونصّ بذلك على مرجعية عترته وأهل بيته، واعتبرهم قُرناء للكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالقرآن هو المصدر الأوّل للشريعة، وهو الثقل الأكبر، وأهل بيته صلّى الله عليه وآله هم المصدر الثاني لها وهم الثقل الأصغر، وفي تكرار الإشارة إليهم وترديد ذلك في عدة مناسبات دلالة على عظيم أهمية هذا الأمر، وإتاحة الفرصة لمن لم يسمع بالسماع، وتذكير لمن سمع.

ولكنّ النبي(صلى الله عليه وآله) لم يكتف بهذا النصّ على أهل بيته، بل حسم الأمر بشكل أكثر وضوحاً، حيث أخرج المحدثون أنّ أباذر الغفاري(رضي الله عنه)، كان يقول وهو آخذ بباب الكعبة: أيّها الناس، من عرفني فأنا من عرفتم، ومن أنكرني فأنا أبوذر، سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله)يقول: "مَثَلُ أهل بيتي مَثَلُ سفينة نوح، من ركبهانجا ومن تخلّف عنها غرق.(٢)"

-١الصواعق المحرقة: ٢٣٠ ـ ٢٣١.

-٢المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري: ٣٤٣/٢ و ١٥٠/٣، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم، كنز العمال: ٢١٦/٦، مجمع الزوائد: ١٦٨/٩، حلية الأولياء: ٣٠٦/٤، تاريخ بغداد للخطيب: ١٩/١٢، ذخائر العقبى للمحب الطبري: ٢٠، كنوز الحقائق: ١٣٢، وفيض القدير للمناوي: ٣٥٦/٤، الصواعق المحرقة: ٣٥٢، وورد في بعض هذه الروايات: انّهم باب حطّة من دخل منه كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً.

وفي نصّ آخر عن ابن عباس وغيره، أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) قال:

"النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأُمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس.(١)"

وصرّح في بعضها قوله(صلى الله عليه وآله)، عن الثقلين "فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تقصّروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم.(٢)"

وقد أكّد ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام)، في مواضع من خطبه، منها قوله(عليه السلام): "انظروا أهل بيت نبيّكم فالزموا سمتهم واتّبعوا أثرهم، فلن يُخْرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وان نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلّوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا.(٣)"

وجاء عن علي بن الحسين زين العابدين(عليه السلام): "... فمن الموثوق به على إبلاغ الحجة وتأويل الحكم إلاّ أعدال الكتاب وأبناء أئمة الهدى

-١المستدرك على الصحيحين: ١٤٩/٣، ٤٥٨ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، كنز العمال: ١١٦/٦، الصواعق المحرقة: ٣٥٣، مجمع الزوائد: ١٧٤/٩، فيض القدير للمناوي: ٢٩٧/٦، ذخائر العقبى للمحب الطبري: ١٧.

-٢الصواعق المحرقة: ٢٣٠.

-٣نهج البلاغة: ١٩٠/٢ ط دار الأندلس.

ومصابيح الدجى، الذين احتجّ الله بهم على عباده، ولم يدع الخلق سدىً من غير حجة؟! هل تعرفونهم أو تجدونهم إلاّ من فروع الشجرة المباركة، وبقايا الصفوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا، وبرّأهم من الآفات، وافترض مودّتهم في الكتاب؟.(١)"!

فتبيّن ممّا سبق أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) قد عيّن ـ بلا ريب ـ لأُمته من بعده من ترجع إليه، وهم أهل بيته(عليهم السلام) وأكّد على وجوب التمسّك بهم مع القرآن، بل وأنذر بأنّ التخلف عنهم، أو مخالفتهم والإعراض عنهم يؤدي الى الهلكة، والوقوع في الضلال.

ولو سألت: ماالذي جعل النبيّ(صلى الله عليه وآله) يحصر هذه المرجعية الدينية في أهل بيته؟

إنّ التسليم بأنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) لا ينطق عن الهوى، معناه أن يكون عمله هذا بأمر من الله سبحانه وتعالى، والله قد خصّ أهل البيت(عليهم السلام)بمواهب تؤهلهم لهذه المهمة الخطيرة.

كما تدلّ محكمات كتابه على ذلك منها قوله عزّ من قائل) :إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَـيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً).(٢)

فأثبت الله سبحانه لهم الطهارة والخلوص من كلّ العيوب التي يتّصف بها معظم البشر، وطهارتهم هذه تستلزم عصمتهم من

-١الصواعق المحرقة: ٢٣٣.

-٢الأحزاب: ٣٣.

الذنوب والعيوب والزلل، ومنها الكذب، أو التقوّل على الله وادّعاء ما لا يصح عليه.

ومن جهة أُخرى فقد أثبت النبيّ(صلى الله عليه وآله) لهم صفات أُخرى مثل كونهم أعلم الأُمة بشريعة الله تعالى، وهذا يستلزم مرجعيّتهم للأُمة.

وفي حثّ النبي(صلى الله عليه وآله) على الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم، وعدم التقدم عليهم أو التأخّر عنهم، وعدم تعليمهم، ما يثبت لهم الكفاءة لهذا المنصب المهمّ، ولا يمكن أن يكون ذلك محاباةً لهم؛ إذ النبيّ(صلى الله عليه وآله) لم يحاب عمّه أبا لهب رغم قرابته له.

هويّة أهل البيت(عليهم السلام)

لقد حاول البعض أن يدخل في أهل البيت(عليهم السلام) من ليس منهم، وقد تصرّف النبي(صلى الله عليه وآله)في عدّة مواضع بما يرفع الريب ويدفع سائر المحتملات ويجعل هوية أهل البيت محدّدة وواضحة للعيان، فقد أخرج المحدّثون عن عدد من الصحابة روايات تتضمن ذلك بشكل واضح، منها ما جاء عن أُم المؤمنين أُمّ سلمة رضي الله عنها أن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قال لفاطمة(عليها السلام): "ائتني بزوجك وابنيك"، فجاءت بهم فألقى عليهم كساءً فدكياً، ثم وضع يده عليهم، ثم قال: "اللهمّ إنّ هؤلاء آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد إنّك حميد مجيد"، قالت أُم سلمة: فرفعت الكساء لأدخل معهم، فجذبه

من يدي وقال: "إنّكِ على خير.(١)"

وعن أُم المؤمنين عائشة، قالت: خرج رسول الله(صلى الله عليه وآله) غداة وعليه مرط مرحّل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عليّ فأدخله، ثم قال) :**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَـيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**).(٢)"

ومن الأُمور التي لا خلاف فيها أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله)، قد باهل وفد نجران بهذه المجموعة نفسها، فقد أخرج المحدّثون والمفسرون عن عدد من الصحابة، منهم سعد بن أبي وقاص، أنه لما أنزل الله هذه الآية) :**فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ**) (٣)دعا رسول الله(صلى الله عليه وآله)

-١مسند أحمد: ٢٩٦/٦، ٣٢٣، المستدرك: ١٠٨/٣، ١٤٧، كنز العمال: ١٠٢/٧، ٢١٧، مجمع الزوائد: ١٦٧/٩.

-٢صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بيت النبي(صلى الله عليه وآله)، المستدرك على الصحيحين: ١٤٧/٣وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، سنن البيهقي: ١٤٩/٢، تفسير الطبري: ٥/٢٢، وأوردها الفخر الرازي في تفسير آية المباهلة وقال: واعلم أنّ هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث، جامع الترمذي: ٢٠٩/٢، ٣١٩، مسند أحمد: ٣٠٦/٦، أُسد الغابة: ٢٩/٤.

-٣آل عمران: ٦١.

عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: "اللهمّ هؤلاء أهلي.(١)"

وقد يسأل سائل: إذا كان أهل البيت هم هؤلاء، فَلِم قالت الشيعة الإمامية الاثني عشرية بأنّ الأئمة من أهل البيت(عليهم السلام)، هم اثني عشر إماماً؟

والجواب: أنّ النصوص التي جاءت عن النبيّ(صلى الله عليه وآله) في صدد تحديد خلفائه قد حدّدتهم بهذا العدد، فقد أخرج المحدّثون والحفّاظ ـ واللفظ للبخاري ـ عن جابر ابن سمرة، قال: سمعت النبيّ(صلى الله عليه وآله) يقول: "يكون اثنا عشر أميراً"، فقال كلمة لم اسمعها، فقال أبي إنّه قال: "كلّهم من قريش.(٢)"

النصّ من شروط المرجعية الشاملة

لقد أوردنا فيما سبق الأدلّة التي تثبت لأهل البيت(عليهم السلام) جدارتهم في التصدي للمرجعية الدينية الإسلامية بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وقدّمنا بعض الشواهد على كفاءتهم لهذه المهمّة باشارات ونصوص

١-جامع الترمذي: ١٦٦/٢، المستدرك على الصحيحين: ١٥٠/٣ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، صحيح مسلم: باب فضائل علي بن أبي طالب(عليه السلام)، سنن البيهقي: ٦٣/٧، أسباب النزول للواحدي: ٧٥ وجميع المفسرين.

٢-صحيح البخاري: ١٠١/٩ كتاب الأحكام، باب الاستخلاف، سنن الترمذي: ٥٠١/٤، سنن أبي داود: ٤ /١٠٦، المعجم الكبير: ١٩٦/٢، وفي بعضها لفظ: خليفة، رجل، قيّم.

صريحة من القرآن الكريم ومن أقوال النبي(صلى الله عليه وآله). وقد ذكرنا فيما سبق أنّ المرجعية الدينية في الإسلام لا تنفصل عن ممارسة القيادة السياسية، وقد مارس الرسول(صلى الله عليه وآله) ذلك وعلى الأخصّ بعد هجرته الشريفة الى المدينة المنوّرة، وأدرك المسلمون هذا التلاحم بين السلطتين الدينية السياسية، فكان النصّ منه على المرجعية الدينية لابد وأن ينسحب على المرجعية السياسية أيضاً، وعلى هذا الأساس عيّن النبيّ(صلى الله عليه وآله) الحاكم الأوّل من بعده، كما عيّن من يليه، ومن ثم أخذت الأُمور مجراها، حيث تولّى كل منهم النصّ على من بعده أيضاً كما أخبره الرسول(صلى الله عليه وآله).

وعندما نستعرض السيرة النبوية الشريفة، نجد أنّ النبي(صلى الله عليه وآله) قد أولى هذه القضية عناية خاصة منذ بدء الرسالة، حيث اهتمّ بإعداد القائد الذي سيخلفه على أمر أُمته من بعده، وقد شاءت العناية الإلهيّة أن تتهيأ الأسباب لهذه التربية النبوية حتى قبل أن يصدع النبيّ برسالته، ويصف لنا ابن اسحاق ـ فيما ينقل عنه ابن هشام ـ ذلك بقوله: كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب، ومما صنع الله له وأراده به من الخير، أنّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله)، للعباس عمّه ـ وكان من أيسر بني هاشم ـ: يا عباس إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفّف عنه من عياله، آخذ من بنيه

رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه. فقال العباس: نعم. فانطلقا حتى أتيا أباطالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما.

فأخذ رسول الله(صلى الله عليه وآله) علياً فضمّه إليه.. فلم يزل عليّ مع رسول الله(صلى الله عليه وآله)حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيّاً، فاتبعه علي(رضي الله عنه) وآمن به وصدقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.(١)

وقد أشار النبيّ(صلى الله عليه وآله) الى مسألة سبق علي(عليه السلام) الى الإيمان والإسلام، ضمن إشاراته الكثيرة الى دوره المستقبلي، الذي كان يعدّه للقيام به، فقال ـ كما عن سلمان وأبي ذر رضي الله عنهما ـ: "إنّ هذا أوّل من آمن بي، وهو أوّل من يصافحني يوم القيامة، وهو الصديق الأكبر، وهذا فاروق هذه الأُمة، يفرّق بين الحقّ والباطل، وهذا يعسوب المؤمنين.(٢)"

وقد أشار علي بن أبي طالب(عليه السلام) الى دور هذه التربية النبوية العظيمة له منذ نعومة أظفاره في تكوين شخصيته وإعدادها للأُمور

١-السيرة النبوية لابن هشام: ٢٤٦/١، المستدرك على الصحيحين: ٥٧٦/٣، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٩٨/١٣ عن الطبري: ٣١٣/٢.

٢-المعجم الكبير للطبراني: ٢٦٩/٦ ح ٦١٨٤، كنز العمال: ٦١٦/١١ ح ٣٢٩٩، تاريخ دمشق: ١٣٠/١٢، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ٢٢٨/١٣.

العظيمة، فقال في خطبة له(عليه السلام): "أنا وضعت بكلاكل العرب، وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر، وقد علمتم موضعي من رسول الله(صلى الله عليه وآله)بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد يضمني الى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسّني جسده، ويُشمّني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يُلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل. ولقد قرن الله به(صلى الله عليه وآله)من لُدن أن كان فطيماً أعظم مَلَك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره. ولقد كنت اتّبعه اتباع الفصيل أثَر أُمه، يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه عَلَماً، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله(صلى الله عليه وآله)وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوة. ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه(صلى الله عليه وآله)، فقلت: يا رسول الله! ما هذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنّك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلاّ أنك لست بنبيٍّ، ولكنّك لوزير، وإنّك لعلى خُبر.(١)"

-١شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ١٣/١٩٧.

النصوص النبويّة على الاستخلاف

لقد كانت مسألة الاستخلاف من الأُمور التي طال الجدل والمناظرة حولها بين مختلف الفرق الإسلامية وبخاصة بين الجمهور القائلين بعدم وجود نص صريح من النبيّ(صلى الله عليه وآله) على أحد حول الخلافة والإمامة من بعده، وقد حاولوا سدّ هذه الثلمة زاعمين بأنه ترك الأمر للأُمة لتختار لنفسها ما تشاء، وبين الشيعة الذين قالوا بوجود هذا النص منه(صلى الله عليه وآله) على علي بن أبي طالب(عليه السلام)، وأنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله)قد نصّبه علماً وهادياً للأُمة وإماماً لها من بعده.

وحين نستعرض سيرة النبيّ(صلى الله عليه وآله)، نجده كان يعطي أهمية عظيمة للإمارة والخلافة، حتى في أبسط المواقف، حيث يدعو الرجلين المسافرين الى تأمير أحدهما، وهو لا يغادر المدينة في غزو أو سفر إلاّ ويستخلف أحداً عليها، يعيّنه بنفسه ولا يترك الأمر للناس ليختاروا من يشاؤون، فإذا كان النبيّ(صلى الله عليه وآله) يهتمّ هذا الاهتمام بمسألة الاستخلاف في حياته، فحريّ به أن يهتم بهذا الأمر الخطير لما بعد وفاته، لما سيتركه بعد رحيله من فراغ كبير في حياة الأُمة.

وقد تنبّه لهذا الأمر جلّ المسلمين، فهذا أبو بكر يستخلف عمربن الخطاب بأمر منه على نحو الالزام ولا يترك للأُمة أن تقرر نيابة عنه ذلك، وهذا عمر بن الخطاب يقرّ أنه لو كان سالم مولى

أبي حذيفة، أو أبو عبيدة بن الجراح حيّين لاختار أحدهما، واستخلفه دون تردد، وهومع ذلك لم يترك الأُمور لاختيار الأُمة بشكل مطلق، حيث حصر الأمر في ستة رشحهم بنفسه وأمر باختيار أحدهم لمنصب الخلافة من بعده.

ولا يمكننا أن نتصور أنّ هؤلاء الصحابة قد أدركوا أهمية الاستخلاف والنبيّ(صلى الله عليه وآله) قد غفل عن ذلك أولم يدرك أهميته، وهو أعقل الناس وأحرص منهم على مصالح الرسالة والأُمة دون تردّد.

وعندما نعود ونستعرض هذه السيرة المباركة للنبي(صلى الله عليه وآله)، تطالعنا نصوص كثيرة تفيد أنه لم يكن قد أهمل هذا الأمر الخطير المتعلق بمستقبل الأُمة، وأ نّه قد حدّد ملامح هذه المرجعية الرائدة مثلما حدّد المرجعية الرائدة، وكان ذلك في بدايات الدعوة الإسلامية، فقد ذكرت لنا مصادر الجمهور، أنّه لما نزل قوله تعالى) :**وأنذر عشيرتك الأقربين**)١))، وكان ذلك في السنة الثالثة من البعثة النبوية الشريفة، دعا النبي(صلى الله عليه وآله) علي بن أبي طالب(عليه السلام) وقال له: "يا علي! إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فضقت بذلك ذرعاً، وعرفت أني متى أُباديهم بهذا الأمر، أرى منهم ما أكره، فصمتُّ عليه حتى جاءني جبرئيل، فقال: يا محمد، إنّك إلاّ تفعل ما تؤمر به يعذّبك ربّك. فاصنع لنا صاعاً من طعام،واجعل عليه رِجل شاة، واملأ لنا عُسّاً من لبن، ثم اجمع لي

-١الشعراء: ٢١٤.

بني عبدالمطلب حتى اُكلّمهم واُبلغهم ما اُمرت به."

]قال] ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم له وهم يومئذ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو ينقصونه، فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبولهب؛ فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم فجئت به، فلما وضعته تناول رسول الله(صلى الله عليه وآله) حذية من اللحم فشقّها بأسنانه، ثم ألقاها في نواحي الصفحة، ثم قال: "خذوا باسم الله"، فأكل القوم حتى مالهم بشيء حاجة. وما أرى إلاّ موضع أيديهم، وأيم الله الذي نفس عليّ بيده، إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمت لجميعهم، ثم قال: "اسق القوم"، فجئتهم بذلك العس فشربوا منه حتى رووا جميعاً، وأيم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن يكلّمهم، بَدَرَه أبو لهب الى الكلام فقال: لهدّ ما سحركم صاحبكم! فتفرّق القوم ولم يكلّمهم رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فقال: "الغد ياعلي، إنّ هذا الرجل سبقني الى ما قد سمعت من القول، فتفرق القوم قبل أن اُكلّمهم، فعدّ لنا من الطعام بمثل ما صنعت ثم اجمعهم لي."

قال: ففعلت ثم جمعتهم، ثم دعاني بالطعام فقربته لهم، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا حتى مالهم بشيء حاجة، ثم قال: "اسقهم" فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا منه جميعاً، ثم تكلّم رسول الله(صلى الله عليه وآله)فقال: "يا بني عبدالمطلب، إنّي والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟" قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت ـ وإنّي لأصغرهم سنّاً وأرمصهم

عيناً وأعظمهم بطناً وأخمشهم ساقاً ـ: أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه!

فأخذ برقبتي، ثم قال: "إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا."

قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع (١)!إنّ هذا النص الذي يطالعنا في بداية الدعوة الإسلامية تجده متضمناً لهذه العبارات الصريحة، والتي بلغ من صراحتها ودلالتها أنّ بعض المؤرخين والمؤلفين قد قاموا بحذفها كلياً أو قاموا بحذف الأجزاء المهمة منها، لتؤكّد على أن النبيّ(صلى الله عليه وآله) قد نصّ على خليفته من بعده، وألزمهم طاعته، حتى ضحكوا من أبي طالب وتهكّموا عليه بضرورة اطاعته لابنه.

-١تاريخ الطبري: ٣١٩/٢، الكامل لابن الأثير: ٦٢/٢، كما أخرجه عدد من المؤرخين والحفاظ ولكن بتغيير بعض ألفاظه كقولهم: "يا بني عبدالمطلب، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة" كما في تاريخ الإسلام للذهبي، السيرة: ١٤٥، دلائل النبوة للبيهقي: ٤٢٨/١، مجمع الزوائد: ١١٣/٩، وفي بعضها: "فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي"، انظر المنتظم لابن الجوزي: ٣٧٦/٢، وفي بعضها: "على أن يكون أخي وكذا وكذا"، كما في البداية والنهاية لابن كثير: ٥٣/٣، وكذلك تفسير ابن كثير لآية الإنذار من سورة الشعراء، وتفسير الطبري لها! كما ذكرها محمد حسين هيكل في الطبعة الأولى من كتابه (حياة محمد)، ولكنه عاد وحذفها من الطبعات اللاحقة.

نصوص نبوية أُخرى

دأب النبيّ(صلى الله عليه وآله) على الإشادة بعلي بن أبي طالب(عليه السلام) من خلال نصوص، تظهر للناس مكانته عند النبي(صلى الله عليه وآله)، تهيئةً للأذهان لما يريده منه في مستقبل الرسالة، فوجّه المسلمين الى أُخوّة علي(عليه السلام)واختصاصه به في بداية الهجرة، فقد أخرج الحفاظ ـ واللفظ لابن هشام ـ عن ابن اسحاق قال: وآخى رسول الله(صلى الله عليه وآله)بين أصحابه المهاجرين والأنصار، فقال: "تآخوا في الله أخوين أخوين"، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: "هذا أخي"، فكان رسول الله(صلى الله عليه وآله)سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين ـ الذي ليس له خطير ولا نظير في العباد ـ وعلي بن أبي طالب(رضي الله عنه)أخوين...(١)

وفي السنة التاسعة من الهجرة، خرج النبيّ(صلى الله عليه وآله) الى غزوة تبوك، وخلّف علي بن أبي طالب (عليه السلام) على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة ـ أخا بني غفار ـ فأرجف

-١السيرة النبوية: ٥٠٤/١، جامع الترمذي: ٥٩٥/٥ ح ٣٧٢٠، المستدرك على الصحيحين: ١٦/٣ ح ٤٢٨٩، الطبقات الكبرى: ٦٠/٢، السيرة الحلبية: ٢٠/٢، مصابيح السنة: ١٧٣/٤ ح ٤٧٦٩، مشكاة المصابيح: ٣٥٦/٣ ح ٢٦٠٩، الرياض النضرة: ١١١/٣، ١٦٤، الفضائل لأحمد بن حنبل: ٩٤ ح ١٤١، تاريخ دمشق: ١٣٦/١٢، تذكرة الخواص: ٢٤ وصححه، كنز العمال: ١٠٦/١٣ ح ٣٦٣٤٥، مسند أبي يعلى: ٣٤٧/١ ح ٤٤٥.

المنافقون بعلي بن أبي طالب وقالوا: ما خلّفه إلاّ استثقالاً وتخفّفاً منه، فلمّا قال ذلك المنافقون، أخذ عليّ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله(صلى الله عليه وآله) وهو بالجرف فقال: يا نبيّ الله، زعم المنافقون أنّك إنّما خلفتني إنك استثقلتني وتخفّفت مني! فقال: "كذبوا، ولكني إنّما خلفتك لما ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلاّ أنه لا نبيّ بعدي."

فرجع علي الى المدينة، ومضى رسول الله(صلى الله عليه وآله) على سفره.(١)

وبذلك أثبت النبيّ(صلى الله عليه وآله) لعليّ(عليه السلام) كلّ مراتب هارون من موسى كالوزارة وخلافته على قومه باستثناء النبوّة.

-١تاريخ الطبري: ١٠٣/٣، الكامل لابن الأثير: ٢٧٨/٢، صحيح البخاري كتاب بدء الخلق باب مناقب علي بن أبي طالب(عليه السلام)، صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل علي بن أبي طالب(عليه السلام)، صحيح الترمذي: ٣٠٠/٢، مسند الطيالسي: ٢٩/١، حلية الأولياء: ١٩٥/٧، تاريخ بغداد: ٣٢٤/١ و ٢٠٤/٤، و ٣٩٤/٩، خصائص النسائي: ١٤ و ١٥، المستدرك على الصحيحين: ٣٣٧/٢، مسند أحمد: ١٧٠/١ ـ ١٧٥ و١٧٧، ١٨٤، ٣٣٠ و٣٦٩/٦، الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣ قسم ١ ص ١٤ و١٥، أُسد الغابة: ٨/٥، كنز العمال: ١٥٤/٣ و ٤٠/٥ و ١٥٤/٦، ١٥٦، ٣٩٥، ٤٠٥ و٢١٥/٨، مجمع الزوائد: ١٠٩/٩، ١١٠، ١١١، الرياض النضرة: ١٦٢/٢، ١٦٤، ١٩٥، ذخائر العقبى: ١٢٠.

مهمة التبليغ عن النبيّ(صلى الله عليه وآله)

لم يكتف النبيّ(صلى الله عليه وآله) بما ذكرنا من مواقف كاشفة عن كفاءة علي(عليه السلام) وجدارته، بل إنه أراد أن يبيّن لأصحابه، تميزّه عليهم جميعاً في التبليغ عنه (صلى الله عليه وآله)، فقد أجمعت الأخبار على أنه في العام التاسع للهجرة، بعث رسول الله(صلى الله عليه وآله) أبابكر بسورة براءة الى أهل مكة، ثم أتبعه بعليّ(عليه السلام)، فقال له: خذ الكتاب فامض به الى أهل مكّة. فلحقه فأخذ الكتاب منه فانصرف أبو بكر وهو كئيب، فقال لرسول الله(صلى الله عليه وآله): أنزلَ فيَّ شيء؟ قال:"لا، إلاّ أني أُمرت أن أُبلغه أنا أو رجل من أهل بيتي.(١)"

-١الخصائص للنسائي: ٢٠، صحيح الترمذي: ٢٥٧/٥ ح ٣٠٩١، مسند أحمد: ٢٨٣/٣، ٣/١، ١٥١، ٣٣٠، كنز العمال: ٢٤٦/١، تفسير الطبري: ٤٦/١٠، ٤٧، المستدرك: ٥١/٣، فتح القدير: ٢ /٣٣٤، الرياض النضرة: ١١٩/٣، البداية والنهاية: ٤٤/٥ حوادث سنة ٩ هـ و ٣٩٤/٧ حوادث سنة ٤٠ هـ تاريخ الطبري حوادث سنة ٩ هـ الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٩ هـ السنن الكبرى للنسائي: ١٢٨/٥ ح ٨٤٦١، الأموال لأبي عبيد: ٢١٥ ح ٤٥٧، تاريخ دمشق: ترجمة الإمام(عليه السلام) رقم ٨٩٠، الدر المنثور: ١٢٥/٤، مختصر تاريخ دمشق: ٦/١٨، شرح نهج البلاغة: ٤٦/١٢ خطبة ٢٢٣، المنتظم لابن الجوزي: ٣٧٢/٣.

علي وليّكم بعدي:

كانت النصوص تتوالى من النبيّ(صلى الله عليه وآله) في علي بن أبي طالب(عليه السلام)على مرّ الأيام والسنين، وكان النبيّ(صلى الله عليه وآله) يصرّح في بعضها بما لا يدع مجالاً للتشكيك في مقصده، وقد تمثل ذلك في تصريحه بولاية علي (عليه السلام)على المسلمين كافة، فعن بريدة، قال: بعث رسول الله(صلى الله عليه وآله)علياً أميراً على اليمن، وبعث خالد بن الوليد على الجبل، فقال: "إن اجتمعتما فعليٌّ على الناس" فالتقوا وأصابوا من الغنائم مالم يصيبوا مثله، وأخذ عليّ جارية من الخمس، فدعا خالد بن الوليد بريدة فقال: اغتنمها، فأخبر النبيّ(صلى الله عليه وآله) بما صنع، فقدمت المدينة ودخلت المسجد ورسول الله(صلى الله عليه وآله)في منزله، وناس من أصحابه على بابه، فقالوا: ما الخبر يا بريدة؟فقلت: خيراً، فتح الله على المسلمين، فقالوا: ما أقدمك؟ قال: جارية أخذها عليّ من الخمس، فجئت لأخبر النبي(صلى الله عليه وآله). فقالوا: فأخبر النبيّ(صلى الله عليه وآله)فإنه يسقط من عين رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ورسول الله(صلى الله عليه وآله) يسمع الكلام،

فخرج مغضباً وقال: "ما بال أقوام ينتقصون علياً؟! من ينتقص علياً فقد انتقصني، ومن فارق علياً فقد فارقني، إنّ علياً مني وأنا منه، خُلق من طينتي وخُلقت من طينة إبراهيم، وأنا أفضل من إبراهيم، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم"، وقال: "يا بريدة، أما علمت أنّ لعليّ أكثر من الجارية التي أخذ؟ وإنّه وليّكم بعدي."

فقلت: يا رسول الله، بالصحبة إلاّ بسطت يدك حتى أُبايعك على الإسلام جديداً. قال: فما فارقته حتى بايعته على الإسلام.(١)

فالنبيّ (صلى الله عليه وآله) قد أثبت في هذا الحديث الصحيح الولاية المطلقة لعلي (عليه السلام)على كافة المسلمين دون استثناء، بما فيهم الشيخان أبوبكر وعمر، لأنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) لم يستثن أحداً.

١-المعجم الأوسط للطبراني: ٢٣٢/٦، تاريخ دمشق لابن عساكر: ١٩١/٤٢ وفيه أن بريدة، قال: فرأيت رسول الله(صلى الله عليه وآله) قد غضب غضباً لم أره غضب مثله قط، إلاّ يوم قريظة والنضير، فنظر اليَّ فقال: "يا بريدة، إن علياً وليّكم بعدي، فأحبّ علياً فإنّه يفعل ما يؤمر"، وقال عبدالله بن عطاء: حدثت بذلك أبا حرب بن سويد بن غفلة فقال: كتمك عبدالله بن بريدة بعض الحديث، إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال له: "أنافقت بعدي يا بريدة؟!"، مسند الطيالسي: ٣٦٠ ح ٢٧٥٢ وفيه عن ابن عباس أن رسول الله(صلى الله عليه وآله)قال لعلي: "أنت ولي كل مؤمن من بعدي"، وأخرجه ابن عبدالبر بنفس السند في الاستيعاب: ١٠٩١/٣، وقال: هذا إسناد لا مطعن فيه لأحد لصحته وثقة نقلته، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ٨٠/١٢ عن عمران بن حصين وفيه أن رسول الله(صلى الله عليه وآله)قال: "ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ علي مني وأنا من علي، وعلي وليّ كل مؤمن بعدي"، وأخرجه أحمد في مسنده: ٤٣٨/٤، ٣٥٦/٥، وفيه: "دعوا علياً، دعوا علياً، إنّ علياً مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي"، وانظر جامع الترمذي: ٦٣٢/٥، خصائص النسائي: ١٠٩، مسند أبي يعلى: ٢٩٣/١ ح ٣٥٥ وقال محققه: رجاله رجال الصحيح، كنز العمال: ١٤٢/١٣، الرياض النضرة: ١٢٩/٣، المعجم الكبير للطبراني: ١٢٨/١٨، الأوسط: ٤٢٥/٥، المستدرك: ١١٠/٣، تاريخ بغداد: ٣٣٩/٤، تاريخ دمشق: ١٠٢/٤٢، أُسد الغابة: ٦٠٤/٣، كنز العمال: ٦٠٨/١١.

التتويج

لقد كانت مسألة الربط بين المرجعية الدينية والسلطة الزمنية من الأُمور التي أكّد عليها النبي(صلى الله عليه وآله)، وحاول أن يجعل الأُمة تعيها وعياً تاماً، ومن ثم حاول توجيه أنظار الأُمة الى أن أهل بيته(عليهم السلام) هم المؤهلون لتولّي هاتين المهمّتين الجسيمتين في حفظ الشريعة، وإدارة الأُمور في الدولة الفتية التي أنشأها، لذا فإنّه كان يربط في أكثر المناسبات بين التمسّك بأهل بيته وبين ولاية علي(عليه السلام)، باعتباره عميد أهل البيت من بعد النبيّ(صلى الله عليه وآله). ولقد تجلّى ذلك على أتمّ وجه بعد عودة النبيّ(صلى الله عليه وآله)من حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، ـ وقد أوردنا الحادثة عند الكلام على حديث الثقلين ـ وقلنا إنّ النبيّ قال فيه: "اني أُوشك أن أُدعى فأُجيب، وإنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله عزّ وجلّ، وعترتي. كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنّ اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما"، ثم قال: "إنّ الله عزّ وجلّ مولاي، وأنا مولى كلّ مؤمن"، ثم أخذ بيد عليّ فقال: "من كنت مولاه فهذا وليّه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاده١)."

-١قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: ٢١٤/٥ نقلاً عن الذهبي: وصدر الحديث، متواتر، أتيقن أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قاله، وأما "اللهم وال من والاه" فزيادة قوية الإسناد، وقال ابن الجزري في أسنى المطالب: ٤٨ هذا حديث حسن من هذا الوجه، صحيح من وجوه كثيرة، متواتر عن أمير المؤمنين علي(رضي الله عنه)، هو متواتر أيضاً عن النبي(صلى الله عليه وآله) رواه الجمّ الغفير عن الجم الغفير، وقال ابن حجر المكي في الصواعق المحرقة: ١٨٧ رواه عن النبي(صلى الله عليه وآله) ثلاثون صحابياً، وأن كثيراً من طرقه صحيح أو حسن.

ثم قام النبيّ(صلى الله عليه وآله)، فتوّج علي بن أبي طالب بعمامته (السّحاب)، وقال له: "يا علي، العمائم تيجان العرب."

مؤهلات الإمام علي(عليه السلام) للمرجعية:

لاشك أنّ اختيار النبيّ(صلى الله عليه وآله) لعلي بن أبي طالب(عليه السلام) للمرجعية العامة للمسلمين من بعده لم يأتِ اعتباطاً ولا محاباة لابن عمّه أو لأنه زوج ابنته، فإنه لم يكن ليتصرف أو لينطق عن هوى نفسه، بل كان متّبعاً لأمر ربّه في كلّ أُموره، ولم تكن محاباة الأقرباء بأهمّ أو أعظم أهميّة عنده من أمر الأُمة الإسلامية، التي حرص طيلة ما يقرب من ربع قرن على تكوينها وجاهد في سبيل ذلك، وتحمّل من المشاق مالا يوصف، حتى تكوّنت نواة هذه الدولة التي كان قدرها أن تقود الإنسانية الى طريق الخير والصلاح في دنياها والفلاح في أُخراها، فالنبيّ(صلى الله عليه وآله) كان حريصاً مشفقاً على أُمته، يرشدها في حياته الى ما ينفعها، فهل يكتفي بذلك ويتركها من بعده ترتطم باللجج دون أن يبيّن لها الطريق السليم الذي يأمن

به عليها من الانحراف عن جادة الصواب والوقوع في متاهات الضلال؟! هذا ممّا لا يمكن تصوّره في حقّ النبي(صلى الله عليه وآله)، الذي نطق القرآن بأنّه) :عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم).(١)

وعلى هذا فاختيار النبيّ(صلى الله عليه وآله) لعلي كان في الحقيقة اختياراً تابعاً لإرادة الله تعالى، كما اختار الله طالوت لما وهبه من بسطة في العلم وفي الجسم، علماً بأنّ الاصطفاء من عند الله سبحانه وهو أدرى بمصلحة عباده في اختيار القادة لهم.

ومن هذا المنطلق نقول: أنّ عليّاً(عليه السلام) كان قد حوى كلّ المواهب التي أهّلته للقيام بدوره القيادي، من العلم والشجاعة وغيرها، والوقائع تثبت كلّ ذلك، إذ طالما أصحر النبيّ(صلى الله عليه وآله) بتميّزه بهذه المواهب في كثير من أقواله وأفعاله.

عليّ أعلم الأُمــة:

لاشك أنّ التصدي للمرجعية بشقيها الديني والزمني، يتطلب علماً غزيراً بأُمور الدين والشريعة من جهة، وبأُمور السياسة والقيادة من جهة أُخرى. وقد أثبتت الشواهد أن عليّاً(عليه السلام)كان أعلم وأحكم وأقضى الأُمة بعد النبي(صلى الله عليه وآله)، شهد له بذلك النبيّ(صلى الله عليه وآله) أوّلاً،

-١التوبة: ١٢٨.

وشهد له الصحابة ثانياً، واثبتته الوقائع ثالثاً، فقد أخرج المحدّثون عن ابن عباس وغيره، أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله)، قال: "أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب.(١)"

وقال أيضاً: "أنا دار الحكمة وعليّ بابها.(٢)"

وهذه بعض الأحاديث التي كان النبيّ(صلى الله عليه وآله) يلفت بها نظر أُمته الى امتياز علي(عليه السلام) بالعلم الذي يؤهلّه للمرجعية الإسلامية العامة من بعده. وقد ربط النبيّ(صلى الله عليه وآله)بين الأمرين بشكل واضح في حديث سلمان، إذ قال: قلت: إنّ لكلّ نبيّ وصيّاً، فمن وصيّك؟ فسكت عنّي، فلما كان بعد رآني فقال: "يا سلمان"، فأسرعت إليه وقلت: لبيك، قال: "تعلم من وصيّ موسى"؟ [قلت]: نعم، يوشع بن نون. قال: "لم"؟ قلت: لأنه كان أعلمهم يومئذ، قال: "فإن وصيّي وموضع سري وخير من أترك بعدي وينجز عدتي ويقضي ديني علي بن أبي طالب.(٣)"

-١المستدرك على الصحيحين: ١٢٦/٣ وقال: هذا حديث صحيح الاسناد، تاريخ بغداد: ٣٤٨/٤، ١٢٧/٧، ٤٨/١١، ٤٩ وقال الخطيب: قال القاسم: سألت يحيى بن معين عن هذا الحديث فقال هو صحيح، اسد الغابة: ٢٢/٤، تهذيب التهذيب: ٣٢٠/٦، ٤٢٧/٧، كنز العمال: ١٥٢/٦، فيض القدير: ٤٦/٣، مجمع الزوائد: ١١٤/٩، الرياض النضره: ١٩٣/٢، كنوز الحقائق للمناوي:٤٣، الصواعق المحرقة:٧٣.

-٢جامع الترمذي: ٢٩٩/٢، حلية الاولياء: ٦٤/١، كنز العمال: ٤٠١/٦.

-٣مجمع الزوائد: ١١٣/٩ وقال: رواه الطبراني، ولا يخفى أن سؤال النبي لسلمان عن سرّ وصاية يوشع لموسى كان بهدف إظهار أعلمية علي (عليه السلام)، والسيرة النبوية لابن اسحاق: ٨٢٥، باختلاف يسير في اللفظ، تحقيق الدكتور سهيل زكار.

ولقد عبّر بعض الصحابة عن هذه الحقائق التي وعوها عن النبيّ (صلى الله عليه وآله)، وشاهدوا مصاديقها بأنفسهم، فقد سأل بعض الناس ابن عباس، فقالوا: أيّ رجل كان علي (عليه السلام)؟ فقال: كان ممتلئاً جوفه حِكَماً وعلماً وبأساً ونجدة، مع قرابته من رسول الله(صلى الله عليه وآله).(١)

وعن عمرو بن سعيد بن العاص قال: قلت لعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة: لم كان صَغْوُ الناس ـ يعني ميلهم ـ إلى علي بن أبي طالب(عليه السلام)؟ قال: يا ابن أخي، إنّ علياً كان له ما شئت من ضرس قاطع في العلم، وكان له البسطة في العشيرة، والقِدَم في الإسلام، والصهر برسول الله والفقه في السنّة، والنجدة في الحرب، والجود في الماعون .(٢)

وعن عبد الملك بن سليمان، قال: قلت لعطاء: أكان في أصحاب محمد أعلم من علي؟قال: لا والله لا أعلم .(٣)

وكان علي(عليه السلام) يقول: "سلوني عن كتاب الله، فإنّه ليس من آية إلاّ وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل.(٤)"

١-الرياض النضرة: ١٩٤/٢ وقال: أخرجه أحمد في المناقب.

٢-تهذيب التهذيب لابن حجر: ٣٣٨/٧.

٣-اسد الغابة: ٢٢/٦، الاستيعاب: ٤٦٢/٢، فيض القدير: ٤٦/٣، الرياض النضره: ١٩٤/٢.

٤-طبقات ابن سعد ٢: ٢ ص ١٠١ عن أبي الطفيل، تهذيب التهذيب: ٣٣٧/٧، وقال فيه: سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلاّ أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلاّ وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار...، الإصابة: ٢٧٠/٤، الاستيعاب: ٤٦٣/٢، تفسير الطبري: ١١٦/٢٦، كنز العمّال: ٢٢٨/١.

وعن ابن عباس أنّ عمر قال: أقضانا علي.(١)

وقال ابن مسعود: كنّا نتحدث أنّ أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب(عليه السلام).(٢)

ولم يكن قول أحدهم إلا صادراً عن شهادة النبيّ(صلى الله عليه وآله) له، حيث قال: "أقضى أُمتي عليّ.(٣)"

فهذه الأخبار ـ وهي غيض من فيض ـ تثبت تحقق شرط الأعلمية لعلي(عليه السلام)، كما تحققّ في طالوت من قبل، حتى اعترف خصوم علي(عليه السلام) له بهذه الفضيلة، فقد قال معاوية ـ عندما بلغه قتله ـ: ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب.(٤)

١-صحيح البخاري. باب تفسير قوله تعالى: (ما ننسخ من آية أو ننسها)، المستدرك: ٣٠٥/٣، مسند أحمد: ١١٣/٥، حلية الأولياء: ٦٥/١.

٢-المستدرك على الصحيحين: ١٣٥/٣، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، طبقات ابن سعد: ٢ قسم ٢ ص ١٠٢، أُسد الغابة: ٢٢/٤، نور الأبصار للشبلنجي: ٧٣.

٣-الرياض النضرة: ١٩٨/٢، الاستيعاب لابن عبدالبر: ٨/١ أورد عدة روايات عن عدد من الصحابة في هذا المعنى، وقال: وروي عن عمرمن وجوه: عليّ أقضانا.

٤-الاستيعاب: ٤٦٣/٢.

عليّ أشجع الأمة

إنّ شجاعة علي (عليه السلام) وشدّة بأسه ونكايته في العدو من الأُمور التي لا يختلف عليها اثنان، وإنّ الأعداء لتشهد له بذلك قبل الأصدقاء، بل لقد أصبح هذا الأمر من الأُمور المشهورة المتواترة التي تتناقلها الأجيال عبر القرون، فقد كان (عليه السلام)حامل لواء رسول الله(صلى الله عليه وآله)في كل زحف.(١)

عليّ في بدر

وكان بلاؤه في بدر عظيماً حتى ذكرت كتب السيرة والتاريخ، أنه قتل معظم المشركين الذين صرعوا في تلك المعركة الفاصلة٢).(

عليّ في أُحد

وفي معركة أُحد "كان المسلمون قتلوا أصحاب اللواء..وكان الذي قتل أصحاب اللواء علي.. فلما قتلهم أبصر النبيّ(صلى الله عليه وآله) جماعة من المشركين، فقال لعلي: "احمل عليهم" ففرّقهم وقتل فيهم، ثم

-١المستدرك على الصحيحين: ١١١/٣ و ٤٩٩، الاستيعاب: ١٧٣/٣، الطبقاب الكبرى: ١٥/٣، مسند احمد: ٣٦٨/١، تهذيب التهذيب: ٤٧٥/٣، أسد الغابة: ٢٠/٤،، كنز العمال: ٢٩٥/٥، الرياض النضرة: ١٩١/٢، مجمع الزوائد: ٣٢١/٥، سنن البيهقي: ٢٠٧/٦. ٢- مغازي الواقدي: ١٤٧/١ تسمية من قتل من المشركين ببدر، السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٧٠٨.

أبصر جماعة آخرين ففرّقهم وقتل فيهم، ثم أبصر جماعة آخرين، فقال له: "احمل عليهم"، فحمل عليهم وفرّقهم وقتل فيهم، فقال جبرائيل: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله)، هذه المواساة! فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): "إنه مني وأنا منه"، فقال جبرائيل: وأنا منكما؛ فسمعوا صوتاً: "لا سيف إلاّ ذوالفقار، ولا فتى إلاّ علي١).!"(

علي في الخندق

وفي معركة الأحزاب، حفر المسلمون خندقاً بإشارة من سلمان الفارسي، فامتنع المسلمون به، ولكن بقيت فيه مواضع غير حصينة جداً، "فأقام رسول الله (صلى الله عليه وآله)والمسلمون وعدوّهم محاصرهم، ولم يكن بينهم قتال، إلاّ أنّ فوارس من قريش، منهم عمرو بن عبدود ابن أبي قيس، أخو بني عامر بن لؤي..وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان، وضرار ابن الخطاب الشاعر ابن مرداس، أخو بني محارب بن فهر، تلبّسوا للقتال ثم خرجوا على

-١تاريخ الطبري: ٥١٤/٢، الكامل لابن الاثير: ١٥٤/٢، سيرة ابن هشام: ١٠٠/٢، الرياض النضرة: ١٣٧/٣، المعجم الكبير للطبراني ٢٩٧/١ ح ٩٤١، تاريخ دمشق: ترجمة الامام علي (عليه السلام) كفاية الطالب للكنجي: ٢٢٧ باب ٦٩ عن الامام الباقر (عليه السلام)، مناقب الخوارزمي: ١٦٧ ح ٢٠٠، وقعة صفين: ٤٧٨، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٥١/١٤ وقال: قد روى هذا الخبر جماعة من المحدثين وهو من الاخبار المشهورة.

خيلهم حتى مرّوا بمنازل كنانة، فقالوا: تهيّأوا يا بني كنانة للحرب، فستعلمون من الفرسان اليوم، ثم أقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إنّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها... ثم تيمّموا مكاناً ضيّقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع وخرج علي بن أبي طالب(عليه السلام) في نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم، وكان عمرو بن عبدود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة، فلم يشهد يوم اُحد، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه، فلما وقف هو وخيله، قال: من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب، فقال له: يا عمرو، إنك كنت قد عاهدت الله ألاّ يدعوك رجل من قريش الى إحدى خلّتين إلاّ أخذتها منه، قال: أجل.

قال له علي: "فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام". قال: لا حاجة لي بذلك.

قال: "فإني أدعوك إلى النزال" فقال له: لِمَ يا ابن أخي؟ فو الله ما اُحبّ أن أقتلك. فقال له علي: "لكني والله اُحبّ أن اقتلك" فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علي؛ فتنازلا وتجاولا، فقتله علي(عليه السلام) وخرجت خيلهم

منهزمة.(١)

وقال السيوطي في تفسيره (الدر المنثور) في ذيل تفسير قوله تعالى)**وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال**(٢))، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابن مسعود (رضي الله عنه)أنه كان يقرأ هذا الحرف)**وكفى الله المؤمنين القتال**(بعلي بن أبي طالب.

كما أورد الذهبي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ)**وكفى الله المؤمنين القتال**(بعلي (٣).وكان المسلمون مشفقين من مبارزة عمرو بن عبد ودّ لما يعلمون من شدّة بأسه، حتى أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) أشفق من خروج علي لمبارزته. وقد فصّل أبو جعفر الاسكافي ـ فيما يرويه عنه ابن أبي الحديد المعتزلي ـ في هذه الواقعة وحال النبيّ(صلى الله عليه وآله) فيها، بما وجده في السير والأخبار "من اشفاق رسول الله (صلى الله عليه وآله) صلى الله عليه وآله وحذره عليه، ودعائه له بالحفظ والسلامة، حتى قال(صلى الله عليه وآله)يوم الخندق ـ وقد برز عليّ إلى عمرو ـ ورفع يديه الى السماء بمحضر من

-١السيرة النبوية لابن هشام: ٢ /٢٤٤، تاريخ الطبري ٥٧٣/٢، الكامل لابن الاثير: ١٨١/٢ المستدرك ٣٢/٣.

-٢الأحزاب: ٢٥.

-٣ميزان الاعتدال: ١٧/٢.

أصحابه: "اللهم إنّك أخذت مني حمزة يوم أُحد، وعبيدة يوم بدر، فاحفظ اليوم عليّا)ربّ لاتذرني فرداً وأنت خير الوارثين)١)"، وكذلك ظنّ به عن مبارزة عمرو حين دعا عمرو الناس إلى نفسه مراراً، في كلّها يحجمون ويقدم علي، فيسأل الإذن له في البراز، حتى قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): "إنه عمرو!"، فقال:"وأنا علي"، فأدناه وقبّله وعمّمه بعمامته، وخرج معه خطوات كالمودّع له، القلق لحاله، المنتظر لما يكون منه، ثم لم يزل(صلى الله عليه وآله) رافعاً يديه إلى السماء، مستقبلاً لها بوجهه، والمسلمون صموت حوله، كأنما على رؤوسهم الطير، حتى ثارت الغبرة، وسمعوا التكبير من تحتها، فعلموا أنّ علياً قتل عمراً، فكبّر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وكبّر المسلمون تكبيرة سمعها مَن وراء الخندق مِن عساكر المشركين، ولذلك قال حذيفة بن اليمان: لو قُسّمت فضيلة عليّ (عليه السلام) بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين بأجمعهم لوسعتهم، وقال ابن عباس في قوله تعالى) :وكفى الله المؤمنين القتال)، قال: بعلي بن أبي طالب.(٢)

-١الأنبياء: ٨٩.

-٢شرح نهج البلاغة: ٢٨٣/١٣ ـ ٢٨٤.

عليّ في خيبر

وفي العام السابع من الهجرة النبوية الشريفة، توجّه النبي(صلى الله عليه وآله)على رأس جيشه لفتح حصون خيبر الحصينة وأرسل إليها بعض أصحابه فلم يصنعوا شيئاً، فعن بريدة قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) ربما أخذته الشقيقة فيلبث اليوم واليومين لا يخرج، فلما نزل رسول الله(صلى الله عليه وآله)أخذته الشقيقة فلم يخرج الى الناس، وأن أبا بكر أخذ راية رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً ثم رجع، فأخذها عمر فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من القتال الاول، ثم رجع فأخبر بذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال: "أما والله لأُعطينّها غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه اللهُ ورسوله، يأخذها عنوة"، قال: وليس ثمَّ علي (عليه السلام)، فتطاولت لها قريش ورجا كلّ واحد منهم أن يكون صاحب ذلك.

فأصبح، فجاء عليّ(عليه السلام) على بعير له حتى أناخ قريباً من خباء رسول الله(صلى الله عليه وآله)،وهو أرمد قد عصّب عينيه بشقة برد قطري، فقال رسول الله: (صلى الله عليه وآله) "مالك"؟ قال: رمدت بعد. فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): "أُدن مني"، فدنا منه فتفل في عينيه، فما وجعها حتى مضى لسبيله، ثم أعطاه الراية، فنهض بها معه وعليه حلة أرجوان حمراء

قد أخرج خملها، فأتى خيبر، وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغفر معصفر يمان وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه وهو يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرّب

فقال علي(عليه السلام):

أنا الذي سمّتني أُمي حيدرة أكيلكم بالسيف كيل السندرة
ليث بغابات شديد قسورة

فاختلفا ضربتين، فبدره علي فضربه، فقدّ الحجر والمغفر ورأسه حتى وقع في الأضراس، وأخذ المدينة.

وعن أبي رافع مولى رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قال: خرجنا مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله (صلى الله عليه وآله)برايته، فلما دنا من الحصن، خرج إليه أهله، فقاتلهم، فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده، فتناول علي (رضي الله عنه) باباً كان عند الحصن فتترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه (١).وقد أخرج المحدّثون القصة أيضاً، فقد أخرج الحاكم عن

-١تاريخ الطبري: ١١/٣ حوادث سنة سبع للهجرة، غزوة خيبر. الكامل لابن الاثير: ٢١٩/٢، سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٣٤.

علي(عليه السلام)، أنه قال (لأبي ليلى): يا أبا ليلى، أما كنت معنا بخيبر؟ قال: بلى. قال: فإنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله)بعث أبابكر إلى خيبر فسار بالناس وانهزم حتى رجع.

وعنه أيضاً قال: سار النبي(صلى الله عليه وآله) إلى خيبر، فلما أتاها بعث عمر ومعه الناس إلى مدينتهم أو قصرهم، فقاتلوهم، فلم يلبثوا أن هزموا عمر وأصحابه، فجاءوا يجبّنونه ويجبّنهم١)...)

عليّ في حنين:

وفي حنين، عندما أعجبت المسلمين كثرتهم، حيث خرج النبي (صلى الله عليه وآله)في عشرة آلاف من جنده الذين فتح بهم مكة وألفين من مسلمة الفتح. فحملت عليهم هوازن وحلفاؤها حملة شديدةً انهزمت منها جموع المسلمين على كثرتهم، وثبت النبيّ(صلى الله عليه وآله) في تسعة من أهله ورهطه الأدنين، وقد فرّ المسلمون كلّهم، والنفر التسعة محدقون به: العباس آخذ بحكَمة بغلته، وعليّ بين يديه مصلتٌ سيفه، والباقون حول بغلة رسول الله (صلى الله عليه وآله) يمنة ويسرة، وقد انهزم المهاجرون والأنصار (٢)...وعن أنس قال: لما كان يوم حنين، انهزم الناس عن

-١المستدرك على الصحيحين: ٣٧/٣ كتاب المغازي، وصححها ووافقه الذهبي في التلخيص.

-٢شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٧٨/١٣.

رسول الله(صلى الله عليه وآله)إلاّ العباس بن عبدالمطلب وأبو سفيان بن الحارث ـ يعني ابن عمّ النبي(صلى الله عليه وآله) ـوأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن ينادى: يا أصحاب سورة البقرة، يا معشر الأنصار، ثم استمر النداء في بني الحرث بن الخزرج، فلمّا سمعوا النداء أقبلوا، فو الله ما شبهتهم إلاّ الابل تحن إلى أولادها، فلما التقوا، التحم القتال، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): "الآن حمي الوطيس" وأخذ كفاً من حصى أبيض فرمى به وقال: هزموا وربّ الكعبة. وكان علي بن أبي طالب يومئذ أشدّ الناس قتالاً بين يديه (١).فهذه المشاهد تشهد كلّها لعليّ(عليه السلام) بأنه كان رجل الحرب المقدام الذي يصلح أن يقود الأُمّة في أحلك الظروف، كما قاد طالوت أُمته للنصر، وأخرج جالوت ورهطه من أرض فلسطين، وأنهى تيه بني اسرائيل في الصحراء.

أسباب الخلاف

ليس هدفنا الآن استعراض فضائل علي (عليه السلام) ـ وهي أكثر من أن تحصى، وقد صُنفت فيها كتب عديدة ـ بل هدفنا قبل كل شيء أن نوضّح الدواعي الحقيقية التي دفعت بالنبيّ(صلى الله عليه وآله) الى الاشادة بعليّ(عليه السلام)، وإظهار دوره المهم في حياة الأُمة في السلم والحرب،

-١مجمع الزوائد: ١٨٠/٦وقال رواة ابو يعلى والطبراني في الاوسط: ورجالها رجال الصحيح غير عمران بن دوار.

والتي لا يمكن أن تكون مجرد محاباة لابن عمّه وأهل بيته كما بيّنا من قبل، بل إنّ الهدف كان لفت انتباه أبناء الأُمة إلى أهلية علي وأهل بيته(عليهم السلام) للقيام بمهام المرجعية الإسلامية من بعده، وبيان مدى تقبّل الأُمة لذلك والتي تباينت مواقف أفرادها بين التسليم المطلق لإرادة النبي(صلى الله عليه وآله)باعتبارها تستمد شرعيتها من وحي السماء، وبين ما كان

يجول في خواطر أفراد آخرين من أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله)ربما كان يحابي ابن عمّه وأهل بيته(عليهم السلام)، وبالتالي تصوّروا أنّ لهم الحقّ في إبداء الرأي أو حتى الاعتراض الذي ربما كان ناجماً في بعض الأحيان عن احساس بالحسد الذي قلّما ينجو منه أفراد البشر. وليس ما نقوله هو مجرد ادعاء غير مستند الى الحقائق، بل إنّ الأخبار متوافرة على إثبات هذه الحقيقة، وقد مرّ فيما سبق رواية عن بريدة تؤكد أنّ خالد بن الوليد قد أرسله ليشكو عليّاً(عليه السلام)للنبيّ(صلى الله عليه وآله)، ويبدو أنه كان يتحيّن مثل هذه الفرصة، لذا قال خالد لبريدة: إغتنمها، كما تبيّن الأمر في أقوال الصحابة الذين حثّوا بريدة على هذه الشكاية وأعلموه بأنّ ذلك يسقط عليّاً (عليه السلام)من عيني النبي(صلى الله عليه وآله)، ممّا جعل النبيّ(صلى الله عليه وآله) يخرج عليهم مغضباً ويخبرهم بأنّ من يؤذي علياً فانّما يؤذي شخصه الكريم (صلى الله عليه وآله).

وجاء عن جابر: قام رسول الله (صلى الله عليه وآله) الى علي بن أبي طالب يوم الطائف واطال مناجاته فرأى الكراهية في وجوه رجال، فقالوا: قد

أطال مناجاته منذ اليوم، فقال: "ما انتجيته، ولكن الله انتجاه.(١)"

وعن زيد بن أرقم، قال: كانت لنفر من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله)أبواب شارعة من المسجد، فقال يوماً: "سدّوا هذه الأبواب إلاّ باب علي" فتكلم في ذلك ناس، فقام رسول الله (صلى الله عليه وآله)فحمد الله وأثنى عيله، ثم قال: "أما بعد، فإني أُمرت بسدّ هذه الأبواب غير باب علي، فقال فيه قائلكم، والله ما سددت شيئاً ولا فتحته، ولكن أُمرت بشيء فاتبعته.(٢)"

وعن سعد بن أبي وقاص، قال،: كنت جالساً في المسجد، أنا ورجلين معي، فنلنا من علي، فأقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله) غضبان، يعرف في وجهه الغضب، فتعوذت بالله من غضبه، فقال: "ما لكم ومالي؟! من آذى علياً فقد آذاني.(٣)"

وعن علي (عليه السلام) قال: "بينا رسول الله (صلى الله عليه وآله) آخذ بيدي ونحن نمشي في بعض سكك المدينة، إذ أتينا على حديقة، فقلت: يا رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ما أحسنها من حديقة! فقال: "إنّ لك في الجنة أحسن منها.."، فلما خلا لي الطريق اعتنقني ثم أجهش باكياً، قلت: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ما يبكيك؟! قال: "ضغائن في صدور أقوام لا يبدونها

-١المعجم الكبير للطبراني: ١٨٦/٢، تاريخ دمشق لابن عساكر: ٣١٢/٢.

-٢المستدرك على الصحيحين: ١٥/٣.

-٣مجمع الزوائد: ٢٩/٩ وقال: رواه ابو يعلى والبزار باختصار، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح غير محمود بن خداش وقنان، وهما ثقتان.

لك إلاّ من بعدي"، قال: قلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله)، في سلامة من ديني؟ قال: "في سلامة من دينك.(١)"

وعن حيّان الأسدي قال: سمعت عليّاً يقول: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: "إن الأُمّة ستغدر بك بعدي، وأنت تعيش على ملّتي. وتقتل على سنّتي، من أحبّك أحبّني، ومن أبغضك أبغضني، وإنّ هذه ستخضب من هذا"، يعني لحيته من رأسه (٢).لقد كانت الأرضية النفسية المعقّدة تستعد لمحاولة صرف الخلافة عن أهل البيت(عليهم السلام)، وكان الحسد أحد الأسباب التي جعلت مسألة جمع الخلافة والنبوّة في بني هاشم من الأُمور التي لا تستسيغها نفوس أقوام استعظمت اجتماع الأمرين في بيت واحد من قريش، رغم علم هؤلاء بأنّ هذا البيت هو الأحقّ بذلك، وقد تبين هذا الموقف جليّاً في عدّة محاورات جرت بين ابن عباس والخليفة الثاني، فقد روى عبد الله بن عمر، قال: كنت عند أبي يوماً وعنده نفر من الناس، فجرى ذكر الشعر، فقال: من أشعر العرب؟ فقالوا: فلان وفلان، فطلع عبد الله بن عباس فسلّم وجلس، فقال عمر: قد جاء الخبير! من أشعر الناس يا عبدالله؟ قال: زهير بن أبي سلمى. قال: فانشد مما تستجيده له، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه مدح

-١مجمع الزوائد: ١١٨/٩.

-٢المستدرك: ١٤٢/٣، صححه ووافقه الذهبي.

قوماً من غطفان يقال لهم بنوسنان، فقال:

لوكان يقعدفوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تنسبهم طابوا وطاب من الاولاد ما ولدوا
إنس إذا أمنوا، جنّ إذا فزعوا مرزّؤون بهاليل إذا جهدوا
محسّدون على ما كان من نعم لا ينزع(١) الله منهم ما له حسدوا

فقال: والله لقد أحسن، وما أرى هذا المدح يصلح إلاّ لهذا البيت من هاشم، لقرابتهم من رسول الله(صلى الله عليه وآله). فقال ابن عباس: وفّقك الله يا أمير المؤمنين، فلم تزل موفقاً. فقال: يابن عباس! أتدري ما منع الناس منكم؟ قال: لا يا أمير

المؤمنين، قال: لكني أدري، قال: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة، فتجحفوا جحفاً، فنظرت قريش لنفسها فاختارت ووفّقت فأصابت. فقال ابن عباس: أيميط أمير المؤمنين عني غضبه فيسمع؟ قال: قل ما تشاء، قال: أما قول أمير المؤمنين: إنّ قريشاً كرهت، فإنّ الله تعالى قال لقوم) :**ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم)** (٢)وأما قولك إنا كنّا نجحف، فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة، ولكنّا قوم أخلاقنا مشتقّة من خلق رسول الله (صلى الله عليه وآله)

-١في المصدر (لا ينزع...) وهذه لا تلائم الوزن الشعري، والصحيح: لا ينزع.

-٢سورة محمّد: ٩.

الذي قال الله تعالى) :**وإنّك لعلى خلق عظيم)**١))، وقال له) :**واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين)** .(٢)وأمّا قولك: فإنّ قريشاً اختارت، فإنّ الله تعالى يقول) :**وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة)** (٣)وقد علمت يا أمير المؤمنين أنّ الله اختار من خلقه لذلك من اختار، فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لها، لوفّقت وأصابت قريش! فقال عمر: على رسلك يابن عباس، أبت قلوبكم يا بني هاشم إلاّ غشاً في أمر قريش لا يزول، وحقداً عليها لايحول. فقال ابن عباس: مهلاً يا أمير المؤمنين! لا تنسب هاشماً إلى الغش، فإنّ قلوبهم من قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله)الذي طهّره الله وزكّاه، وهم أهل البيت، الذين قال الله تعالى لهم) :**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا)** (٤) وأما قولك: حقداً فكيف لا يحقد من غُصب شَيْؤُه، ويراه في يد غيره!

فقال عمر: أمّا أنت يابن عباس، فقد بلغني عنك كلام أكره أن أُخبرك به فتزول منزلتك عندي. قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ أخبرني به، فإن يك باطلاً، فمثلي أماط الباطل عن نفسه، وإن يك

-١القلم: ٤.

-٢الشعراء: ٢١٥.

-٣القصص: ٦٨.

-٤الأحزاب: ٣٣.

حقاً فإنّ منزلتي عندك لا تزول به.

قال: بلغني انّك لا تزال تقول: أُخذ هذا الأمر منكم حسداً وظلماً، قال: أما قولك يا أمير المؤمنين: حسداً، فقد حسد إبليس آدم فأخرجه من الجنة، فنحن بنو آدم المحسود.

وأما قولك ظلماً، فأمير المؤمنين يعلم صاحب الحق من هو.

ثم قال: يا أمير المؤمنين! ألم تحتجّ العرب على العجم بحق رسول الله(صلى الله عليه وآله)! واحتجّت قريش على سائر العرب بحق رسول الله(صلى الله عليه وآله)؟ فنحن أحق برسول الله من سائر قريش.

فقال له عمر: قم الآن فارجع إلى منزلك. فقام، فلما ولّى هتف به عمر: أيها المنصرف، إني على ما كان منك لراع حقّك.

فالتفت ابن عباس فقال: إنّ لي عليك يا أمير المؤمنين وعلى كل المسلمين حقّاً برسول الله، فمن حفظه فحقّ نفسه حفظ، ومن أضاعه فحق نفسه أضاع.(١)...

وفضلاً عن ذلك، فإنّ من الحجج التي التمسها القوم لصرف الأمر عن علي (عليه السلام)، هو قتله رؤوس المشركين في معارك الإسلام الكبرى، ممّا يدل على أنّ القلوب كانت ما تزال منطوية على ضغائنها رغم اعتناق الإسلام، وقد صرّح عثمان بن عفّان بذلك،

١-شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٥٢/١٢.

فيما روى ابن عباس، قال: وقع بين عثمان وعلي (عليه السلام) كلام، فقال عثمان: ما أصنع إن كانت قريش لاتحبّكم، وقد قتلتم منهم يوم بدر سبعين، كأنّ وجوههم شنوف الذهب، تصرع أنفهم قبل شفاههم١)!

اجراءات خط الاجتهاد:

كانت تدابير (خطّ الاجتهاد في قبال النص) قوية وحاسمة في صرف الأمر عن أهل البيت(عليهم السلام)، وقد بدأت هذه الاجراءات قبل وفاة النبي (صلى الله عليه وآله)، فبعد حادثة الغدير، أصبح من الواضح أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله)يعدّ علياً (عليه السلام)لتولي أمر المرجعية الإسلامية المطلقة بعده، ليحلّ محلّ النبيّ(صلى الله عليه وآله)في إدارة شؤون البلاد السياسية والعسكرية والاقتصادية والدينية بأجمعها، ثم أراد النبيّ(صلى الله عليه وآله)بسبب مارآه من عصيان البعض وتقاعسهم في اللحاق ببعث أُسامة ـ بدافع من الشعور بأن مرض النبي (صلى الله عليه وآله) قد يكون بداية النهاية لعصر الرسالة، وأنّ شخص النبيّ(صلى الله عليه وآله)سيختفي من الساحة، وبذلك يتحتم أن يحلّ شخص آخر محله ـ وكان أصحاب الخط الأول قد بدأوا يقلقون من الأمر فعلاً، فالنبيّ(صلى الله عليه وآله) يتهيأ للانتقال إلى جوار ربه ويخلي الساحة،

-١شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٢/٩.

وهم يتهيأون لمغادرة المدينة المنورة إلى أرض بعيدة ضمن حملة عسكرية لا يعرفون نتائجها بالنسبة إلى مصائرهم، وبما أنّ علياً ومؤيديه لم يكونوا من ضمن هذه الحملة، فالأمر الطبيعي أن يكتشف هؤلاء أنّ هذا التدبير من النبيّ(صلى الله عليه وآله)كان مقصوداً لذاته، فإبعاد المعارضة عن مركز الحكم سوف يهيء الجوّ الملائم لتولي علي (عليه السلام)مهام الخلافة بعد رحيل النبي(صلى الله عليه وآله) بسهولة ويسر، حتى إذا عادت البعثة العسكرية من مهمّتها بعد أيّام متطاولة، يكون الأمر قد تمّ على أحسن وجه، وتمّت البيعة لعلي (عليه السلام)واستقرت الأُمور، فلا يبقى للمعارضة حينئذ إلاّ الإذعان للأمر الواقع، والدخول فيما دخل فيه الناس.

لقد أدرك أصحاب الخط المعارض هذه الحقيقة، فراحوا يتثاقلون في إرسال بعث أُسامة. ورغم إلحاح النبيّ(صلى الله عليه وآله) على الإسراع في إرسال هذا الجيش، وقوله المستمر: "انفذوا بعث أُسامة"، ممّا كان يعبّر عن قلق النبيّ(صلى الله عليه وآله) من فشل تدبيره إذا عاجلته المنيّة قبل خروج البعث وابتعاد المعارضة عن مركز الحكم وانقطاع الأخبار عنها، ممّا دفع النبيّ(صلى الله عليه وآله) في نهاية الأمر إلى محاولة اتخاذ إجراء آخر يحسم به الموقف بشكل نهائي، ويعهد إلى عليّ(عليه السلام) بالأمر من بعده في صورة كتاب خطّي لا يمكن تأويله أو دفعه، فبادر إلى الطلب من أصحابه بأن يأتوه بالقرطاس والدواة ليكتب لهم كتاباً لا

يضلّون بعده كما مرّ خبره فيما سبق.

لم يكن من الصعب على خط الاجتهاد أن يكتشف فحوى هذا الكتاب، فالنبي (صلى الله عليه وآله) على فراش الموت، وفي مثل هذه الحالة فإنه لا يتوقع منه إلاّ أن يكون الكتاب الذي يريد كتابته إنما هو وصيّته ـ كما هو متوقع ـ ولم يكن كلام النبي (صلى الله عليه وآله)ليدل على أنّ الوصية تتعلق بشؤون الميراث أو ما شابه ذلك، لأنّ قول النبيّ(صلى الله عليه وآله): "لا تضلون بعده" يدل على أنّ الأمر يتعلق بمستقبل الأُمة والدعوة الإسلامية، إذ الشريعة كانت متكاملة، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى بذلك في قوله عزّ من قائل) :**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**).(١)

وبمقارنة قول النبيّ(صلى الله عليه وآله): "لا تضلون بعده" بقوله في حديث الثقلين: "ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا"، أصبح من الواضح أنّ النبيّ إنّما يريد الوصاية لأهل بيته من بعده، وفي طليعتهم عميدهم علي(عليه السلام)، فعندها تصدّى أصحاب الخط المعارض بكل حزم وقوة لإرادة النبيّ(صلى الله عليه وآله)، زاعمين أنّ النبي(صلى الله عليه وآله) يهذي ـ والعياذ بالله ـ بتأثير المرض.(٢)

-١المائدة: ٣.

-٢من الواضح من الروايات أن عمر بن الخطاب قد قال: إن النبي ليهجر، أي يهذي، وقد أحس المحدثون بشناعة هذه الكلمة، فابدلوها في بعض الروايات التي تكشف عن أن القائل هو عمر، بعبارة: غلبه الوجع.

ولم يجد النبيّ(صلى الله عليه وآله) ـ إزاء هذا التعسف ـ ما يفعله تعبيراً عن سخطه على هذا الأُسلوب في المعارضة سوى أن يطرد الجمع من مجلسه قائلاً لهم: "قوموا عني!"

وليس هذا مجرد استنتاج من عندنا، فقد صرّح عمر نفسه بذلك، فيما روى عنه ابن عباس، حيث قال: دخلت على عمر في أوّل خلافته، وقد أُلقي له صاع من تمر على خصفة، فدعاني إلى الأكل، فأكلت تمرة واحدة، وأقبل يأكل حتى أتى عليه، ثم شرب من جرّ كان عنده، واستلقى على مرفقة له، وطفق يحمد الله، يكرر ذلك، ثم قال: من أين جئت يا عبد الله؟ قلت: من المسجد، قال كيف خلّفت ابن عمّك؟ فظننته يعني عبدالله بن جعفر، قلت: خلّفته يلعب مع أترابه، قال: لم أعن ذلك، إني عنيت عظيمكم أهل البيت. قلت: خلّفته يمتح بالغرب (١)على نخيلات من فلان، وهو يقرأ القرآن، قال: يا عبدالله، عليك دماء البُدن إن كتمتنيها؛ هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قلت: نعم، قال: أيزعم أن رسول الله(صلى الله عليه وآله)نصّ عليه؟ قلت: نعم، وازيدك، سألت أبي عمّا يدّعيه، فقال: صدق،

-١المتح: جذبك الرشاء تمد بيد وتأخذ بيد على رأس البئر، كتاب العين: ٣: ١٩٦، والغرب: الدلو.

فقال عمر: لقد كان من رسول الله(صلى الله عليه وآله)في أمره ذرو (١)من قول لا يثبت حجة ولا يقطع عذراً، ولقد كان يربع في أمره وقتاً ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقاً وحيطة على الإسلام، لا وربّ هذه البنيّة، لا تجتمع عليه قريش أبداً؛ ولو وليها لا نتقضت عليه العرب من أقطارها، فعلم رسول الله (صلى الله عليه وآله)انّي علمت ما في نفسه فأمسك، وأبى الله إلاّ إمضاء ما حتم٢).

-١ذرو: طرف.

-٢شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٢ / ٢٠ ـ ٢١ وقال: ذكر هذا الخبر أحمد بن أبي طاهر صاحب كتاب تاريخ بغداد في كتابه مسنداً.

الفصل الثالث

بذرة التشيّع

في مقابل خط الاجتهاد الذي كان يرى عدم لزوم التسليم في كلّ الأُمور لوصايا وتعليمات النبيّ (صلى الله عليه وآله)، كان هناك مَن يرى لزوم التعبّد بكلّ النصوص الواردة عن النبي (صلى الله عليه وآله)، والالتزام بكلّ أوامره ونواهيه ووصاياه في أيّ أمر كان. سواء ما كان منها متعلقاً بأُمور التشريع، أو ما كان متعلقاً بتسيير الأُمور بعد رحيله(صلى الله عليه وآله). وقد برز رجال يمثّلون خط التعبّد بالنص لعلّهم كانوا لا يزيدون على العشرات، ثم انضم إليهم آخرون.

ومن الطبيعي أن يكون أتباع النص قد استمدوا من النبيّ(صلى الله عليه وآله)شرعيّة مواقفهم فيما يتعلق بالمرجعية الدينية والسياسية في مرحلة ما بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ولم يكن موقفهم اجتهاداً شخصيّاً أو متعلقاً بمسألة ولاءات شخصية أو قبلية. فإنّ هذه الفئة قد وجدت ـ إضافة

للنصوص النبوية ـ في شخصية عليّ (عليه السلام) ملامح القائد الذي تؤهله مواهبه النفسية والخلقية لتسنّم هذا المنصب الخطير الذي يتوقف عليه مستقبل الدعوة التي أسّس النبيّ(صلى الله عليه وآله) قواعدها وشاد بناءها، وصار لزاماً على من يأتي بعده أن يحافظ على هذا البناء النبوي ويصونه من رياح التغيير التي قد تعصف به نتيجة للظروف والأخطار التي أحاطت بالدعوة طيلة مسيرتها، والتي كان من أسبابها قرب عهد المسلمين بماضيهم الجاهلي، واشتداد حركة النفاق بعد الهجرة، وانطواء بعض النفوس على ضغائن ولّدتها الحروب الطاحنة بين المسلمين وخصومهم الذين أصبح الكثير منهم محسوبين على الدعوة الإسلامية بعد فتح مكة بالخصوص، وهم الذين أسماهم النبيّ(صلى الله عليه وآله)بـ(الطلقاء) وتألّفهم بالمال وغيره طمعاً في إزالة سخائم نفوسهم على المسلمين وإسكاتاً لشره نفوس بعضهم الآخر لأُمور الدنيا وحبِّ زينتها، لعلم النبيّ(صلى الله عليه وآله)بأنّ معظم أُولئك قد دخلوا الإسلام كرهاً بعد أن أُسقط ما في أيديهم ولم يكن لهم بدٌّ من الاستسلام للواقع الجديد، ولكن إسلام معظم أُولئك لم يكن تسليماً، فضلاً عن الأخطار التي كانت تتهدد مستقبل الدعوة من خارج الجزيرة العربية، والمتمثلة في وجود دول ذات جبروت وقوة ومن الطبيعي أن يروقها تحوّل المسلمين إلى قوّة تهدّد

أطرافها إن لم يكن يهدّد كيانها كله.

إذن، فقد استمدّ خط التعبّد بالنصّ المقابل لخط الاجتهاد أمام النص شرعية موقفه من شرعية موقف النبي (صلى الله عليه وآله) تجاه علي (عليه السلام)من جهة، ومن ملاحظته انطباق هذا الموقف النبوي على الواقع الخارجي لشخصية علي(عليه

السلام)من جهة أُخرى كقول النبي (صلى الله عليه وآله): "من أطاعني فقد اطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع عليّاً فقد أطاعني، ومن عصى علياً فقد عصاني (١)."وقوله (صلى الله عليه وآله): "أنا وعلي حجة الله على عباده.(٢)"

وقوله (صلى الله عليه وآله): "أُوحي إليَّ في عليٍّ ثلاث: إنه سيد المسلمين، وإمام المتّقين، وقائد الغرّ المحجلين.(٣)"

وقول النبي (صلى الله عليه وآله): "علي مع الحق والحق مع علي، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض يوم القيامة."

١-المستدرك على الصحيحين: ١٢١/٣ عن أبي ذر وقال: هذا حديث صحيح الإسناد: ١٢٨/٣، الرياض النضرة: ١٦٧/٢.

٢-كنوز الحقائق للمناوي: ٤٣، تاريخ بغداد: ٨٨/٢، الرياض النضرة: ١٩٣/٢، ذخائر العقبى: ٧٧ وقال: أخرجه النقاش.

٣-المستدرك: ١٣٧/٣ وقال: هذا حديث صحيح الاسناد، كنز العمال: ١٥٧/٦، الإصابة:

، أُسد الغابة: ٦٩/١، ١١٦/٣، الرياض النضرة: ١٧٧/٢، حلية الأولياء: ٦٦/١، تاريخ بغداد: ١٢٢/١٣، الاستيعاب: ٦٥٧/٢، مجمع الزوائد: ١٠٢/٩، فيض القدير للمناوي: ٣٥٨/٤ وغيرهم.

وقوله وقد مرّ علي (عليه السلام): "الحق مع ذا، الحق مع ذا.(١)"

من هذه النصوص وأمثالها، فهم أُولئك الأصحاب أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله)يثبت لعلي (عليه السلام)أمراً بالغ الأهمية، وهو كونه على الحق، ومع الحق وأنّهما لا يفترقان، وقد مرّ فيما سبق أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) قد قرن أهل بيته بالقرآن في حديث الثقلين، وأخبر بأنهما لا يفترقان حتى يردا عليه الحوض، ثم خصّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) علياً بذلك، فقال: "علي مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض.(٢)"

فإذا كان القرآن حقّاً لا ريب فيه، وكان عليّ مع القرآن، فهو مع الحق بداهة، وطالما كان هو على الحق، فإنّ اتّباعه يصبح واجباً، لوجوب اتّباع الحق.

كانت هذه أهم الأدلة التي جعلت أُولئك الأصحاب من أتباع النص يرون ضرورة التمسك بعلي وضرورة اتّباعه وعدم جواز مخالفته، وكانت مواقفهم واضحة حتى في زمن النبي (صلى الله عليه وآله).

قال محمد كُرد علي: "عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة

١-تاريخ بغداد: ٣٢١/١٤، المستدرك: ١١٩/٣، ١٢٤، جامع الترمذي: ٢٩٨/٢، مجمع الزوائد: ١٣٤/٩، ٢٣٥/٧، وقال الفخر الرازي: أما إن علي بن أبي طالب (عليه السلام) كان يجهر بالبسملة، فقد ثبت بالتواتر، ومن اقتدى في دينه بعلي بن أبي طالب فقد اهتدى، والدليل عليه قوله (صلى الله عليه وآله): "اللهم أدر الحق مع علي حيث دار"، التفسير الكبير: ٢٠٤/١، مبحث الجهر بالبسملة.

-٢المستدرك: ١٢٤/٣، مجمع الزوائد ١٢٤/٩، كنز العمال: ١٥٣/٦، فيض القدير: ٣٥٦/٤.

عليّ في عصر رسول الله(صلى الله عليه وآله)،مثل سلمان الفارسي، القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين، والائتمام بعلي بن أبي طالب والموالاة له.

ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول: أمر الناس بخمس، فعملوا بأربع وتركوا واحدة. ولما سئل عن الأربع قال: الصلاة، والزكاة، وصوم شهر رمضان، والحج. قيل: فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب. قيل له: وإنّها لمفروضة معهن؟! قال: نعم.

ومثل: أبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وذي الشهادتين خزيمة بن ثابت، وأبي أيوب الأنصاري، وخالدبن سعيد بن العاص، وقيس بن سعد بن عبادة (١)."ويميل إلى هذه الحقيقة الدكتور صبحي الصالح حيث يقول:

كان بين الصحابة حتى في عهد النبيّ(صلى الله عليه وآله) شيعة لربيبه علي، منهم: أبوذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وجابر بن عبد الله، وأُبي بن كعب، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، والعباس بن عبد المطلب وجميع بنيه، وعمّار بن ياسر وأبو أيوب الأنصاري (٢).ومصطلح (الشيعة) أيضاً لم يكن من الألفاظ المبتدعة في

-١خطط الشام: ٢٥١/٥.

-٢النظم الإسلامية: ٦٩.

عصور متأخرة عن عصر النبي (صلى الله عليه وآله)، كما يحاول بعض الباحثين أن يوحي بذلك، فقد كان النبيّ يذكر تلك اللفظة بين حين وآخر، ليدل على أتباع علي(عليه السلام)، ويبشّرهم بأنهم على الحق، وأنّهم الفائزون، وأنّهم خير الناس، فقد أخرج المفسّرون والحفّاظ: أ نّه لما نزل قوله تعالى) **:إنّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات أُولئك هم خير البريّة)** قال النبي(صلى الله عليه وآله): "أنت يا علي وشيعتك١)."

وضوح الخط:

كان الغالب على ظنّ أُولئك الصحابة من شيعة علي (عليه السلام)، أنّ الأمر لن يخرج عن بني هاشم وعميدهم بعد تأكيدات النبي (صلى الله عليه وآله)، وحثّه

-١تفسير الطبري: ١٧١/٣٠، الدر المنثور للسيوطي وقال: أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبدالله، قال: كنا عند النبي (صلى الله عليه وآله) فأقبل علي(عليه السلام)، فقال النبي(صلى الله عليه وآله): "والذي نفسي بيده، إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة"، ونزلت: (إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات أُولئك هم خير البرية)، فكان أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله)إذا أقبل علي(عليه السلام)، قالوا: جاء خير البرية، وقال أيضاً: وأخرج ابن عدي عن ابن عباس قال: لما نزلت: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أُولئك هم خيرالبرية)، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي: "هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين"، وذكر ان ابن مردويه أخرج في تفسير الآية قوله(صلى الله عليه وآله): "أنت وشيعتك موعدي وموعدكم الحوض إذا جاءت الأُمم للحساب، تدعون غراً محجلين."

الصفحة ٨٧

المستمر على التمسّك بعلي وأهل بيته(عليهم السلام)، ولكن الأحداث المتسارعة في السقيفة قلبت الأوضاع رأساً على عقب، وكانت المفاجأة كبيرة لعلي(عليه السلام) وأتباعه، بما لم يكن يخطر على بال أحدهم، رغم وجود علامات كانت تشير إلى أنّ أصحاب خط الاجتهاد من قريش لم يكونوا مسلّمين لإرادة النبيّ(صلى الله عليه وآله) في هذا الأمر، وقد قالها أحد أساطينهم صراحة لابن عباس، بأنّ قريشاً كرهت أن تجتمع الخلافة والنبوّة في بني هاشم، فكانت الاجراءات المترتّبة على هذه الكراهية، والتي ظهرت آثارها في سقيفة بني ساعدة.

ويبدو أنّ إجراءات هذا الخط لم تكن خافية كلّ الخفاء على أتباع علي(عليه السلام)، فقد كان هناك شعور بين أفرادهم على أنّ قريشاً تدبّر أمراً ما في الخفاء لصرف هذا الأمر عن زعيمهم وأبنائه، حيث يصف لنا البراء بن عازب ذلك بقوله:

لم أزل لبني هاشم محبّاً، فلمّا قبض رسول الله(صلى الله عليه وآله) خفت أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم، فأخذني ما يأخذ الوالهة العجول، مع ما في نفسي من الحزن لوفاة رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فكنت أتردّد إلى بني هاشم وهم عند النبي(صلى الله عليه وآله)في الحجرة، وأتفقّد وجوه قريش، فإنّي كذلك إذ فقدت أبابكر وعمر، وإذا قائل يقول: القوم

الصفحة ٨٨

في سقيفة بني ساعدة، وإذا قائل آخر يقول: قد بويع أبوبكر؛ فلم ألبث وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة، وهم محتجزون بالأزر الصنعانية لايمرّون بأحد إلاّ خبطوه وقدّموه فمدّوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه، شاء ذلك أم أبى؛ فأنكرت عقلي وخرجت أشتدّ حتى انتهيت الى بني هاشم والباب مغلق، فضربت عليهم الباب ضرباً عنيفاً وقلت: قد بايع الناس لأبي بكر بن أبي قحافة. فقال العباس: تَربَت أيديكم الى آخر الدهر، أمّا إني قد أمرتكم فعصيتموني.

فمكثتُ أُكابد ما في نفسي، ورأيت في الليل المقداد وسلمان وأباذر وعبادة بن الصامت وأبا الهيثم بن التيهان وحذيفة وعماراً، وهم يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين.(١)...

بدأ خطّ المؤيدين لعلي(عليه السلام) يتّضح أكثر فأكثر بعد حادثة السقيفة وبيعة أبي بكر المفاجئة، فكان هذا اللّقاء المصغّر الذي تحدّث عنه البراء، ثم أعقبه ذلك مراحل أُخرى تمثّلت بإبداء الرأي والاعتراض على البيعة التي تمّت فلتةً وبغتة، فكان

مما قال سلمان: أصبتم ذا السنّ منكم، وأخطأتم أهل بيت نبيّكم، لو جعلتموها فيهم ما اختلف عليكم إثنان، ولأكلتموها رغداً.

-١شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢١٩/١.

ولمّا أكثر الناس في تخلّف علي(عليه السلام) عن بيعة أبي بكر، واشتدّ أبوبكر وعمر عليه في ذلك خرجت أُم مِسطح بن أُثاثة، فوقفت عند القبر ـ يعني قبر النبي(صلى الله عليه وآله) ـ وقالت:

كانت أُمور وأنباء وهنبثة لو كنتَ شاهدها لم تكثر الخُطبُ

إنّا فقدناك فقدَ الأرض وابلَها واختلّ قومك فاشهدهم ولاتَغبُ(١)

وقد مرّ فيما سبق عرض البراء بن عازب لبدايات أحداث السقيفة، وخروجه لملاقاة نفر من الصحابة وفيها تتمّة قوله: فمكثت أُكابد ما في نفسي، فلمّا كان بليل، خرجت إلى المسجد، فلمّا صرت فيه، تذكّرت إنّي كنت أسمع همهمة رسول الله(صلى الله عليه وآله)بالقرآن، فامتنعت من مكاني، فخرجت إلى الفضاء، فضاء بني بياضة، وأجد نفراً يتناجون، فلما دنوت منهم سكتوا، فانصرفت عنهم، فعرفوني وما أعرفهم، فدعوني إليهم فأتيتهم، فأجد المقداد ابن الأسود، وعبادة بن الصامت، وسلمان الفارسي، وأباذر، وحذيفة، وأبا الهيثم بن التيهان؛ وإذا حذيفة يقول لهم: والله ليكوننّ ما أخبرتكم به، والله ما كذبت ولا كذّبت، وإذا القوم يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين.

-١شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٤٩/٢ـ٥٠.

ثم قال: ائتوا أُبيّ بن كعب فقد علم كما علمت، قال: فانطلقنا إلى أُبيّ، فضربنا عليه بابه، حتى صار خلف الباب، فقال: من أنتم؟ فكلّمه المقداد، فقال: ماحاجتكم؟ فقال له: افتح عليك بابك فإنّ الأمر أعظم من أن يجري وراء حجاب. قال ما أنا بفاتح بابي، وقد عرفت ماجئتم له، كأنّكم أردتم النظر في هذا العقد، فقلنا: نعم، فقال: أفيكم حذيفة؟ فقلنا: نعم. قال: فالقول ما قال، وبالله افتح عني بابي حتى يُجرى على ماهي جارية، ولما يكون بعدها شرّ منها، وإلى الله المشتكى.(١)!

ويبدو أنّ أُبيّاً ظلّ يحمل هذا السّر بين جوانحه حتى أراد أن يفشيه بعد ذلك بسنوات لو لا أن عاجلته المنيّة قبل ذلك بيوم واحد، فعن عُتي بن صخرة، قال: قلت لأُبيّ بن كعب: ما شأنكم يا أصحاب رسول الله؟! نأتيكم من الغربة نرجو عندكم الخير فتهاونون بنا؟! قال: والله لئن عشت إلى هذه الجمعة لأقولنّ قولاً لا أُبالي استحييتموني أو قتلتموني.

فلما كان يوم الجمعة خرجت فإذا أهل المدينة يموجون في سكهها، فقلت: ما الخبر؟ قالوا: مات سيّد المسلمين أُبيّ

-١شرح نهج البلاغة: ٢/٥١ـ٥٢.

ابن كعب؟ (١)وفي رواية ابن سعد، قلت: والله إن رأيت كاليوم في السّتر أشدّ مما ستر هذا الرجل (٢) .وفي رواية الحاكم أنّ أُبيّاً، قال: لئن أخرتني إلى يوم الجمعة لأتكلمنّ بما سمعت من رسول الله(صلى الله عليه وآله)، لا أخاف فيه لومة لائم (٣).قال اليعقوبي: وتخلّف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار، ومالوا مع علي بن أبي طالب منهم: العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسي وأبوذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأُبي بن كعب (٤).ولعلّ هذا قد دفع بعض الباحثين والمستشرقين إلى الاعتقاد بأنّ التشيّع قد ولد بعد حادثة السقيفة، إذ يقول جولد تسيهر: نشأ بين كبار الصحابة منذ بدأت مشكلة الخلافة، حزب نقم على الطريقة التي أُنتخب بها الخلفاء الثلاثة الأوَل، وهم: أبوبكر وعمر وعثمان، الذين لم يراع في انتخابهم درجة القرابة من أُسرة

-١سير أعلام النبلاء: ١/٣٩٩.

-٢الطبقات الكبرى: ٣/٥٠١.

-٣المستدرك: ٣ / ٣٠٥.

-٤تاريخ اليعقوبي: ٢/١٢٤.

النبيّ(صلى الله عليه وآله)، وقد فضّل هذا الحزب بسبب هذا الاعتبار أن يختار للخلافة علي بن أبي طالب ابن عمّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) وادنى قريب له، والذي كان ـ فضلاً عن ذلك ـ زوجاً لابنته فاطمة، ولم يجد هذا الحزب فرصة مواتية يسمع فيها صوته عالياً .(١)

وقدم خالد بن سعيد بن العاص، وكان النبيّ(صلى الله عليه وآله)قد استعمله على عمل، فقدم بعدما قُبض رسول الله(صلى الله عليه وآله) وقد بايع الناس أبابكر، فدعاه إلى البيعة. فأبى، فقال عمر: دعني وإيّاه، فمنعه أبوبكر حتى مضت عليه سنة، ثم

مرّ به أبو بكر وهو جالس على بابه، فناداه خالد: يا أبابكر هل لك في البيعة؟ قال: نعم، قال: فادنُ، فدنا منه فبايعه خالد وهو قاعد على بابه (٢).وقد استمرّت معارضة الصحابة المؤيدين لعلي(عليه السلام) إلى أيام الشورى التي انتهت بتولية عثمان، وفي تلك الأيام التي سبقت التولية أظهر أُولئك الصحابة موقفهم علناً، ففي اليوم الثالث ـ وهو اليوم الأخير من المهلة التي حدّدها عمر للاستشارة ـ قال عبد الرحمن بن عوف: أيها الناس، أشيروا عليّ في هذين الرجلين ـ يعني علياً وعثمان ـ فقال عمّار بن ياسر: إن أردت ألا يختلف

-١العقيدة والشريعة في الإسلام: ١٨٦، وانظر فجر الإسلام لأحمد أمين: ٢٦٦.

-٢شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ٤١/٦.

الناس، فبايع علياً (عليه السلام).

فقال المقداد: صدق عمّار، وإن بايعت علياً سمعنا وأطعنا.

فقال عبدالله بن أبي سرح :(١)إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان.

وقال عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي: صدق، إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا.

فشتم عمّار ابن أبي سرح وقال له: متى كنت تنصح الإسلام؟!

فتكلّم بنو هاشم وبنو أُمية، وقام عمار، فقال: أيّها الناس، إنّ الله أكرمكم بنبيّه، وأعزّكم بدينه، فالى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيّكم؟!

-١عبدالله بن سعد بن أبي سرح، قال ابن عبدالبر في ترجمته: أسلم قبل الفتح وهاجر، وكان يكتب الوحي لرسول الله(صلى الله عليه وآله) ثم ارتدّ مشركاً، وصار الى قريش مكة فقال لهم: إنّي كنت أصرف محمداً حيث أُريد، كان يملي عليّ: (عزيز حكيم) فأقول: أوَ عليم حكيم؟ فيقول: "نعم، كل صواب" فلما كان يوم الفتح أمر رسول الله(صلى الله عليه وآله) بقتله وقتل عبدالله بن خطل، ومقيس بن حبابة ولو وجدوا تحت أستار الكعبة. ففرّ عبدالله بن أبي سرح الى عثمان، وكان أخاه في الرضاعة، أرضعت أُمه عثمان، فغيّبه عثمان حتى أتى به رسول الله(صلى الله عليه وآله)بعدما إطمأنّ أهل مكة، فاستأمنه له، فصمت رسول الله(صلى الله عليه وآله) طويلاً. ثم قال: "نعم". فلمّا انصرف عثمان، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) لمن حضره: "ما صمتُّ إلاّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه". وقال رجل من الأنصار: فهلاّ أومأت إليّ يا رسول الله؟ فقال: "إنّ النبيّ لا ينبغي أن يكون له خائنة الأعين". الاستيعاب: ٥٠/٣ رقم ١٥٧١.

فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوت طورك يابن سميّة، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها؟!

فقال سعد: يا عبدالرحمن، افرغ من أمرك قبل أن يفتتن الناس. فحينئذ عرض عبدالرحمن على عليّ (عليه السلام)العمل بسيرة الشيخين، فقال: بل اجتهد برأيي، فبايع عثمان بعد أن عرض عليه، فقال: نعم.

فقال علي(عليه السلام): ليس هذا بأوّل يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون، والله ما وليّته الأمر إلاّ ليردّه إليك، والله كلّ يوم في شأن.

فقال عبد الرحمن: لا تجعلنّ على نفسك سبيلاً يا علي ـ وهو يقصد أمر عمر أبا طلحة أن يضرب عنق المخالف ـ فقام علي(عليه السلام)فخرج وقال: سيبلغ الكتاب أجله.

فقال عمّار: يا عبد الرحمن، أما والله لقد تركته، وإنّه من الّذين يقضون بالحق وبه كانوا يعدلون.

وقال المقداد: تالله ما رأيت مثل ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم، واعجبا لقريش! لقد تركت رجلاً ما أقول ولا أعلم أنّ أحداً أقضى بالعدل ولا أعلم ولا أتقى منه! أما والله لو أجد أعواناً!

فقال عبد الرحمن: اتّقِ الله يا مقداد فإنّي خائف عليك الفتنة[1].

-1شرح نهج البلاغة: ١٩٣/١ـ١٩٤.

وبعد أن تمّ الأمر لعثمان، خرج المقداد من الغد، فلقي عبدالرحمن بن عوف، فأخذ بيده وقال: إن كنت أردت بما صنعت وجه الله، فأثابك الله ثواب الدنيا والآخرة، وإن كنت إنّما أردت الدنيا فأكثر الله مالك.

فقال عبدالرحمن: اسمع رحمك الله، اسمع. قال: لا أسمع والله، وجذب يده من يده، ومضى حتى دخل على علي(عليه السلام)فقال: قم فقاتل نقاتل معك.

قال علي: "فبمن أُقاتل رحمك الله؟!" وأقبل عمار بن ياسر ينادي:

يا ناعي الإسلام قم فانعه قد مات عرفٌ وبدا نكرُ

أما والله لو أنّ لي أعواناً لقاتلتهم، والله لئن قاتلهم واحد لأكونن ثانياً.

فقال علي: يا أبا اليقطان! والله لا أجد عليهم أعواناً، ولا أحب أن أُعرّضكم لما لا تطيقون (١).ومن هنا يبدو أنّ معارضة الموالين لعلي(عليه السلام) قد بدأت تتخذ شكلاً أكثر عنفاً، حيث كان يصل أحياناً إلى الدعوة للنهوض لانتزاع الحق بعد أن فرغ صبر هؤلاء.

-١شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٥٥/٩.

ولو أطاع علي (عليه السلام) نداءاتهم لنهض بالأمر، ولكنه كان أبعد منهم نظراً وأكثر تقديراً للمخاطر المترتبة على ذلك. وأعرف بما يعتمل في نفوس مؤيدي خط الخلافة والذين كانوا يمثّلون الأكثرية لأسباب ذكرها عليّ(عليه السلام)، وهي تتّضح من رواية جندب بن عبد الله الأزدي.

قال جندب: دخلت مسجد رسول الله، فرأيت رجلاً جاثياً على ركبيته يتلهّف من كأنّ الدنيا كانت له فسُلبها، وهو يقول: واعجباً لقريش ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيّهم، وفيهم أول المؤمنين، وابن عمّ رسول الله، أعلم الناس وأفقههم في دين الله، وأعظمهم غناء في الإسلام، وأبصرهم بالطريق، وأهداهم للصراط المستقيم، والله لقد زووها عن الهادي المهتدي الطاهر النقي، وما أرادوا إصلاحاً للأُمة ولا صواباً في المذهب، ولكنّهم آثروا الدنيا على الآخرة، فبعداً وسحقاً للقوم الظالمين.

فدنوت منه، فقلت: من أنت يرحمك الله؟ ومن هذا الرجل؟ فقال: أنا المقداد بن عمرو، وهذا الرجل علي بن أبي طالب. قال: فقلت: ألا تقوم بهذا الأمر فأعينك عليه؟ فقال: يابن أخي، إنّ هذا الأمر لا يجري فيه الرجل ولا الرجلان، ثم خرجت، فلقيت أباذر فذكرت له ذلك فقال: صدق أخي المقداد، ثم أتيت عبدالله بن

مسعود فذكرت ذلك له فقال: لقد أخبرنا فلم نألُ (١).وأورد ابن أبي الحديد الرواية باختلاف يسير.(٢)

إلاّ أنّ الأحداث التي وقعت بعد ذلك في خلافة عثمان، والتي أدّت إلى نقمة الناس عليه، قد فتحت أعين الناس على حقائق جديدة، وبدأت المعارضة لسياسة عثمان تتسع وتكتسب قاعدة أكبر حتى شعر المجتمع بفداحة الخطأ الذي ارتكبه بحقّ عليّ بن أبي طالب(عليه السلام)، وأدرك الناس أنّ الخطأ في المسيرة قد تعمّق نتيجة الإعراض عنه وعن أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله)، وكان أوائل الشيعة من أمثال: عمار وابن مسعود وأبي ذر الغفاري في طليعة الدعاة لتصحيح المسيرة وإعادة الحقّ الى نصابه، ولقيت دعوتهم آذاناً صاغية كثيرة، وسرعان ما تحوّلت المعارضة الكلامية إلى معارضة مسلّحة أطاحت بالخليفة الثالث.

وعندما وصلت الأخبار إلى حذيفة بن اليمان ـ وهو من الشيعة الأوائل ـ وكان على فراش الموت، وسئل عن الأمر، فقال لهم: آمركم أن تلزموا عمّاراً. قالوا: إنّ عمّاراً لا يفارق علياً! قال: إنّ الحسد هو أهلك الجسد، وإنما ينفّركم من عمار قربه من عليّ، فوالله

-١تاريخ اليعقوبي: ٥٧/٢.

-٢شرح نهج البلاغة: ٥٧/٩ ـ ٥٨.

لعليّ أفضل من عمّار، أبعد ما بين التراب والسحاب، وإنّ عماراً لمن الأحباب، وهو يعلم أنّهم إن لزموا عمّاراً كانوا مع عليّ (١).ولما بلغ حذيفة بن اليمان أنّ علياً قد قدم (ذي قار) واستنفر الناس، دعا أصحابه فوعظهم وذكّرهم الله وزهّدهم في الدنيا ورغّبهم في الآخرة، وقال لهم: الحقوا بأمير المؤمنين ووصيّ سيد المرسلين، فإنّ من الحقّ أن تنصروه (٢).وكان حذيفة يحذّر من الفتن، ويدعو إلى التمسك بعلي (عليه السلام)في فترة الدعوة التي كان يتولاّها شيعة علي (عليه السلام)، ويقول: انظروا الفرقة التي تدعو إلى أمر عليّ فالزموها فإنّها على الهدى (٣).وكان أبوذر يقعد في المسجد ويقول:... ومحمد وارث علم آدم وما فضّل به النبيّون، وعلي بن أبي طالب وصيّ محمد ووارث علمه. أيتها الأُمّة المتحيّرة بعد نبيّها! أما لو قدّمتم من قدّم الله، وأخّرتم من أخّر الله، وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيّكم، لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولما عال وليّ الله، ولا طاش سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله، إلاّ

-١مجمع الزوائد: ٢٤٣/٧ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

-٢شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢ / ١٨٧ ـ ١٨٨.

-٣مجمع الزوائد ٢٣٦/٧ وقال: رواه البزار ورجاله ثقات، فتح الباري: ٤٥/١٣.

وجدتم علم ذلك عندهم من كتاب الله وسنّة نبيّه، فأمّا إذ فعلتم ما فعلتم، فذوقوا وبال أمركم، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون (١).وكان عدي بن حاتم يقول: والله لئن كان الى العلم بالكتاب والسنة، إنّه ـ يعني عليّا ـ لأعلم الناس بهما، ولئن كان إلى الإسلام، إنّه لأخو نبيّ الله والرأس في الإسلام، ولئِن كان إلى الزهد والعبادة، إنّه لأظهر الناس زهداً وأنهكهم عبادة، ولئن كان إلى العقول والنحائز٢))، إنّه لأشد الناس عقلاً وأكرمهم نحيزة٣) .)

ما بعد البيعة:

لقد كان لهذه الدعوات المستمرة من أُولئك الصحابة الممثّلين لخطّ التشيّع لعليّ(عليه السلام)صدىً كبيرٌ أدّى إلى اتساع نطاق التشيّع يوماً بعد يوم، ليشمل عدداً آخر من الصحابة ومن ثم التابعين لهم. لهذا لا نستغرب أن نجد مالك الأشتر يوم بيعة علي(عليه السلام)، يقول: أيّها الناس، هذا وصيّ الأوصياء، ووارث علم الأنبياء، العظيم البلاء، الحسن

-١تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٦٧ ـ ٦٨.

-٢جمع نحيزة: أي الطبيعة.

-٣جمهرة الخطب: ١ / ٣٧٩ رقم ٢٦٧.

الغناء، الذي شهد له كتاب الله بالإيمان، ورسوله بجنّة الرضوان، من كملت فيه الفضائل، ولم يشك في سابقته وعلمه وفضله الأواخر ولا الأوائل.

وقد بايع الأشتر عليّاً(عليه السلام) نيابة عن أهل الكوفة، وبايعه طلحة والزبير نيابة عن المهاجرين، وقام أبو الهيثم بن التيهان وعقبة بن عمرو وأبو أيوب فقالوا: نبايعك على أنّ علينا بيعة الأنصار وسائر قريش.

وقام قوم من الأنصار فتكلّموا، وكان أوّل من تكلم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، وكان خطيب الأنصار فقال: والله يا أمير المؤمنين، لئن كانوا تقدّموك في الولاية، فما تقدّموك في الدين، ولئن كانوا سبقوك أمس فقد لحقتهم اليوم، ولقد كانوا وكنت لا يخفى موضعك ولا يجهل مكانك، يحتاجون إليك فيما لا يعلمون، وما احتجت إلى أحد مع علمك.

ثم قام خزيمة بن ثابت الأنصاري، وهو ذو الشهادتين، فقال: يا أمير المؤمنين، ما أصبنا لأمرنا هذا غيرك، ولا كان المنقلب إلاّ إليك، ولئن صدقنا أنفسنا فيك، فلأنت أقدم الناس إيماناً، وأعلم الناس بالله، وأولى المؤمنين برسول الله، لك ما لهم، وليس لهم ما لك.

وقام صعصعة بن صوحان فقال: والله يا أمير المؤمنين، لقد زَيّنتَ الخلافة وما زانتك، ورفَعتَها وما رفَعتْك، ولهي إليكَ أحوج منك إليها(١).

تعثّر المسيرة:

بلغ اتّجاه التشيّع لعليّ (عليه السلام) أوجه خلال فترة حكم عثمان، وبعد تسنّم علي سدّة الحكم بعد البيعة الجماهيرية العظيمة التي تمّت له، والتي يصفها هو نفسه بقوله: "فتداكّوا عليَّ تداكّ الإبل الهيم يوم وردها وقد أرسلها راعيها، وخُلعت مثانيها، حتى ظننت أنّهم قاتلي، أو بعضهم قاتل بعض ولدي (٢)"...إلاّ أنّ الأُمور بدأت تسير عكس المسيرة، عندما عارض

بعض الصحابة عليّاً(عليه السلام)، بعدما تبيّن لهم أنّه يريد أن يعيد الأُمور إلى ما كانت عليه في زمن النبي(صلى الله عليه وآله)، من مساواتهم مع سائر الناس في العطاء ـ وهو الأمر الذي كان عمر قد سنّه وغيّره وتابعه عليه عثمان ـ بالاضافة إلى تغيير بعض الولاة ممّن اشتهروا بسوء سيرتهم خاصة في زمن عثمان، فتأججت نيران الحرب واستمرت

-١تاريخ اليعقوبي: ٧٥/٢.

-٢شرح نهج البلاغة: ٦/٤.

حتى نهاية خلافة علي(عليه السلام) والتي دامت ما يقرب من خمسة أعوام، وكانت من افرازات هذه المعارك الطاحنة في أيام الجمل وصفين أنّها أكلت عدداً لا يستهان به من أكثر شيعة علي(عليه السلام) إخلاصاً وتفانياً، وأصحهم عقيدة، وأكثرهم تسليماً له، ولم يبق منهم إلاّ أقل القليل، فكانت النتيجة وخيمة، إذ إنّ من تبقّى معه لم يكونوا في أغلبهم ممّن أخلص في تشيّعه واتّباعه والاحتفاف به، وكانت الحرب قد أنهكتهم، لذا فإنّ الكثير منهم ما لبثوا أن استجابوا لأوّل دعوة خادعة بإيقاف الحرب.

ولمّا حاول عليّ (عليه السلام)أن يثنيهم عن عزمهم كاشفاً وجه الخداع في المسألة، نجدهم يبادرون إلى عصيانه إلى درجة تهديده بالقتل أو بالتسليم لعدوّه، فلم يجد بدّاً من النزول عند رغبتهم، ولم يكن ذلك نهاية المطاف، إذ إنّهم سرعان ماندموا على قبول التحكيم، وتبيّن لهم خطأهم، ولكنهم عالجوا الأمر بسلبية أكثر، فطلبوا منه التحلل من عهوده التي قطعها على نفسه والعودة إلى الحرب، وهذا ممّا يدلّل على أنّ هؤلاء لم يكونوا أصحاب بصيرة، ولا كان تشيّعهم لعليّ(عليه السلام)إلاّ تشيّعاً ظاهرياً غير نابع من عقيدة راسخة، كما ويدلّنا تصرّفهم ذاك على مدى عمق ترسّخ المنهج الذي اتّبعه أصحاب الخط الاجتهادي، ممّا جعل الخروج على أمر أولياء الأُمور

ظاهرة اعتيادية، طالما كان الخروج على أمر النبيّ(صلى الله عليه وآله)ذاته ممكناً.

لقد أدّى تمرّد هذه الفئة إلى زيادة الأُمور تعقيداً، إذ إنّ علياً(عليه السلام)قد وجد نفسه في نهاية الأمر مضطراً إلى خوض الحرب معهم بعدما أفسدوا في بعض النواحي وقتلوا بعض الأبرياء دون ذنب، وكانت نتيجة ذلك أكثر وبالاً، فإنّ المعركة قد أنهكت قوى مؤيديه، وأدت إلى تقاعسهم أكثر فأكثر، ولم يفلح تحريضه ومن بقي معه من خواصّ شيعته في استنهاض هممهم من جديد.

ثم جاءت الطامة الكبرى حينما تجرّأ أحد المتمرّدين عليه وقتله في محراب عبادته، لينهي صفحة من الكفاح الدؤوب لتنشئة جيل من الشيعة متشرّب بالقيم التي تؤهّله للنهوض بأعباء المرحلة العصيبة التي واجهها منذ وفاة النبي (صلى الله عليه وآله)، وحتى لحظة سقوطه في محرابه بسيف ابن ملجم.

إنّ هذه النهاية المأساوية التي جاءت في هذا الوقت العصيب، قد أثّرت على المسيرة بشكل واضح، ولهذا فإنّ ابنه الحسن(عليه السلام) لم يجد بُدّاً من القيام بدوره التكميلي في الإصلاح أمام هذه الأعباء الثقيلة، مع الافتقار إلى العدد الكافي من الأعوان ذوي العقائد الصحيحة، وتخاذل الجزء الأكبر من الباقين، فلم يجد بدّاً من مهادنة معاوية بن أبي سفيان، بعد أن أدرك عدم جدوى الاستمرار في

القتال في ظلّ تلكم الظروف.

وباستلام معاوية زمام الأُمور دخل التشيّع في أصعب مراحله، إذ بدأ معاوية بملاحقة الشيعة والانتقام منهم بكلّ تعسّف، ولم يكن قد بقي من خلّص الشيعة إلاّ عدد ضئيل، التقطهم معاوية وأوردهم موارد الهلاك، من أمثال: حجر بن عدي وأصحابه، وعانى البقية ظروفاً شديدة من القهر والملاحقة والتضييق على مدى عشرين عاماً من حكم معاوية الذي افتتح ولايته على الأُمة الإسلامية بقهر الشيعة واضطهادهم بكلّ صنوف العذاب، فقد نقل ابن أبي الحديد المعتزلي عن كتاب "الأحداث" للمدائني، قائلاً: كتب معاوية نسخة واحدة الى عمّاله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقام الخطباء في كلّ كورة وعلى كلّ منبر يلعنون علياً ويبرؤون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشدّ الناس بلاءً حينئذ أهل الكوفة، لكثرة من بها من شيعة علي(عليه السلام)، فاستعمل عليها زياد بن سميّة، وضمّ اليه البصرة، فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف؛ لأنه كان منهم أيّام عليّ(عليه السلام)، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشرّدهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم، وكتب معاوية الى

عمّاله في جميع الآفاق: ألاّ يجيزوا لأحد من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكلّ ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته. ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصِّلات والكساء والحباء والقطائع ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كلّ مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمّال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلاّ كتب اسمه وقرّبه وشفّعه، فلبثوا بذلك حيناً.

ثم كتب الى عمّاله: أنّ الحديث في عثمان قدكثر وفشا في كلّ مصر وفي كلّ وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعو الناس الى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلاّ وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإنّ هذا أحبّ اليَّ وأقرّ لعينيوأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشدّ إليهم من مناقب عثمان وفضله.

فقُرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا

المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وأُلقي الى معلمّي الكتاتيب، فعلّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ثم كتب الى عمّاله نسخة واحدة الى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البيّنة، أنّه يحبّ عليّاً وأهل بيته، فامحوه من الديوان، واسقطوا عطاءه ورزقه.

وشفع ذلك بنسخة أُخرى: من اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكّلوا به، واهدموا داره.

فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيّما بالكوفة، حتى أن الرجل من شيعة علي(عليه السلام) ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته فيلقي إليه سرّه، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنّ عليه.

فظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة؛ وكان أعظم الناس في ذلك بليّة القرّاء المراؤون، والمستضعفون الذين يُظهرون الخشوع والنُّسك، فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم، ويقرّبوا مجالسهم، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار

والأحاديث الى أيدي الديّانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان، فقبلوها ورووها وهم يظنّون أنّها حقّ، ولو علموا أنّها باطلة لما رووها ولا تديّنوا بها.

فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي(عليه السلام)، فازداد البلاء والفتنة، لم يبق أحدٌ من هذا القبيل إلاّ وهو خائف على دمه، أو طريد في الأرض.

ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين(عليه السلام)،وولي عبدالملك بن مروان، فاشتد على الشيعة، وولّى عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرّب إليه أهل النّسك والصلاح والدين ببغض علي وموالاة أعدائه، وموالاة من يدّعي من الناس أنّهم أيضاً أعداؤه، فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من الغضّ من علي(عليه السلام) وعيبه والطعن فيه والشنآن عليه، حتى إنّ إنساناً وقف للحجّاج ـ ويقال إنه جدّ الأصمعي عبدالملك بن قريب ـ فصاح به: أيها الأمير: إنّ أهلي عقّوني فسمّوني عليّاً، وإني فقير بائس، وأنا الى صلة الأمير محتاج! فتضاحك له الحجاج وقال: لِلُطفِ ما توسّلت به قد ولّيتك موضع كذا!

وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه ـ وهو من أكابر المحدّثين وأعلامهم ـ في تاريخه ما يناسب هذا الخبر، وقال: إنّ

أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة، اُفتعلت في أيام بني اُمية تقرّباً إليهم بما يظنون أنّهم يرغمون به اُنوف بني هاشم.(١)

كما وأورد ابن أبي الحديد رواية اُخرى عن الإمام الباقر(عليه السلام)في هذا المعنى، يُحدّث بعض أصحابه، قال (عليه السلام): يا فلان، ما لقينا من ظلم قريش إيّانا، وتظاهرهم علينا، وما لقي شيعتنا ومحبّونا من الناس! إن رسول الله(صلى الله عليه وآله)قُبض وقد أخبر أنّا أولى الناس بالناس، فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه، واحتجّت على الأنصار بحقّنا وحجّتنا، ثم تداولتها قريش واحدٌ بعد واحد، حتى رجعت إلينا، فنكثت بيعتنا، ونصبت الحرب لنا، ولم يزل صاحب الأمر في صعود كؤود حتى قُتل، فبويع الحسن ابنه وعوهد ثم غُدر به واُسلم، ووثب عليه أهل العراق حتى طُعن بخنجر في جنبه، ونُهبت عسكره، وعولجت خلاخيل اُمهات أولاده، فوادع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته، وهم قليل حق قليل، ثم بايع الحسين(عليه السلام) من أهل العراق عشرون ألفاً، ثم غدروا به، وخرجوا عليه وبيعته في أعناقهم وقتلوه، ثم لم نزل ـ أهل البيت ـ نُستذل ونُستضام، ونقصى ونُمتهن، نحرم ونقتل، ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به الى أوليائهم وقضاة السوء وعمّال السوء في كل بلدة، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورووا عنّا ما لم نقله

١-شرح نهج البلاغة: ٤٤/١١ ـ ٤٦، ذكربعض ما مني به آل البيت من الأذى والاضطهاد.

وما لم نفعله، ليبغّضونا الى الناس، وكان عُظم ذلك وكبره زمان معاوية بعد موت الحسن(عليه السلام)، فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكان من يُذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سُجن أو نهب ماله، أو هُدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد الى زمان عبيدالله بن زياد قاتل الحسين(عليه السلام)، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة، وأخذهم بكل ظنّة، وتهمة، حتى أنّ الرجل ليقال له: زنديق أو كافر أحبّ إليه من أن يقال: شيعة عليّ، وحتى صار الرجل الذي يذكر بالخير ـ ولعلّه يكون ورعاً صادقاً ـ يحدّث بأحاديث عظيمة عجيبة من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة، ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها، ولا كانت ولا وقعت، وهو يحسب أنها حقّ لكثرة من قد رواها ممّن لم يعرف بكذب ولا بقلّة ورع.(١)

إنّ هاتين الوثيقتين المهمتين تكشفان عن حال الشيعة في العصر الأموي، إلاّ أنّ سقوط الدولة الأموية بعد أكثر من قرن وربع من الزمان، وقيام الدولة العباسية، لم يكن بأقلّ شدّة وسوءاً على الشيعة، فإنّ العباسيين الذين قاموا بثورتهم على الأمويين

باسم الدعوة للرضا من آل محمد(صلى الله عليه وآله)، سرعان ما كشفوا عن نواياهم في الاستئثار بالسلطة التي تحولت الى امتداد للملك الأموي، فقلبوا لأهل البيت(عليهم السلام)ظهر المجن وهم أبناء عمومتهم، إذ إنّه وبعد فترة

-١شرح نهج البلاغة: ٤٣/١١.

وجيزة من الانفراج في أواخر عهد الأُمويين وبداية عهد العباسيين، تنفّس فيها أهل البيت(عليهم السلام) وشيعتهم قليلاً من نسائم الحرية، سرعان ما أحسّ العباسيون ـ وبخاصة في زمن المنصور ـ بخطورة اتساع قاعدة التشيع، بسبب التفاف الجماهير حول أهل البيت(عليهم السلام)عندما بدأوا يلمسون تنكّر العباسيين لمبادئهم المعلنة، وراحوا يقتفون أثر الأُمويين في الطغيان والارهاب على سبيل تدعيم ملكهم الغاشم، فبدأُوا بالتضييق على أئمة أهل البيت(عليهم السلام)وشيعتهم، مما أدى الى قيام انتفاضات شعبية تزعّمها عدد من السادة العلويين، من بينهم محمد بن عبدالله بن الحسن بن علي الملقب بالنفس الزكية، والذي أشار في رسالة بعثها الى الخليفة العباسي المنصور الى الأُسلوب الذي اتبعه العباسيون في استلاب حقّ آل البيت عن طريق إعلان الثورة على الأُمويين باسمهم ثم الاستئثار بالسلطة دونهم، فكان ممّا قال فيها:... فإنّ الحقّ حقّنا، وإنّما ادّعيتم هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا، وإنّ أبانا عليّاً كان الوصيّ وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟! ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا، لسنا من أبناء اللّعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء، وليس يمتّ أحد من بني هاشم بمثل الذي نمتُّ به من القرابة والسابقة والفضل... إنّ الله اختارنا واختار لنا، فوالدنا من النبيين

محمد(صلى الله عليه وآله)، ومن السلف أوّلهم إسلاماً علي، ومن الأزواج أفضلهنّ خديجة الطاهرة، وأوّل من صلّى القبلة، ومن البنات خيرهنّ فاطمة سيدة نساء أهل الجنّة، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة.(١)

وعندما خاب المنصور بالظفر بالنفس الزكية، وجّه سهام حقده الى أهله وعشيرته الأقربين، وقد وصف الجاحظ ما فعل المنصور بهم، فقال: ومضى المنصور ببني حسن الى الكوفة فسجنهم بقصر ابن هبيرة، وأحضر محمد بن إبراهيم بن حسن وأقامه، ثم بنى عليه اسطوانة وهو حيّ، وتركه حتى مات جوعاً وعطشاً ثم قتل أكثر من معه من بني حسن، وكان إبراهيم الغمر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فيمن حُمل مصفّداً بالحديد من المدينة الى الأنبار، وكان يقول لأخويه عبدالله والحسن: تمنّينا ذهاب سلطان بني أُمية، واستبشرنا بسلطان بني العباس، ولم يكن قد انتهت بنا الحال الى ما نحن عليه.(٢)

وبعد فشل ثورة النفس الزكية ومقتله في المدينة، ومصرع أخيه إبراهيم بن عبدالله الذي ثار في البصرة وقُتل في باخمرى

-١تاريخ الطبري: ٥٦٧/٧.

-٢النزاع والتخاصم: ٧٤.

قرب الكوفة في الوقعة التي أسماها الناس: بدر الصغرى.(١)

واستمرّت الثورات ضد العباسيين، ففي عهد المهدي بن جعفر المنصور، خرج عليّ بن العباس بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب [(عليهم السلام)]، ولكن المهدي نجح في القبض على الثائر العلوي، ثم أطلق سراحه بشفاعة الحسن بن علي له، ولكنه دسّ له السم في شربة عسل، فعملت فيه، فلم يزل ينتقض عليه في الأيام حتى قدم المدينة، فتفسّخ لحمه، وتباينت أعضاؤه، فمات بعد دخوله المدينه بثلاثة أيام.(٢)

وفي عهد الخليفة موسى الهادي خرج الحسين بن عليّ بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب(عليهم السلام) ثائراً، وانتهت ثورته بمصرعه في فخ، وهو المعروف بشهيد فخ.

وعندما تولى الرشيد الحكم بعد الهادي، ألقى القبض على يحيى بن عبدالله بن الحسن، فبنى عليه اسطوانة وهو حيّ.(٣)

وعندما تولى المأمون بن الرشيد الحكم تظاهر بمحبة العلويين، ودعا الإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام) وأسند إليه ولاية

-١مقاتل الطالبيين لأبي فرج الاصفهاني: ٣٦٥.

-٢المصدر السابق: ٤٠٣.

-٣مقاتل الطالبيين: ٤٠٣.

العهد قسراً، ثم دسّ له السَّم فمات منه.

وتوالت أعمال العباسيين الفظيعة تجاه أئمة الشيعة، وتجاوزوا الأحياء الى الأموات، حين كرب المتوكّل قبر الحسين(عليه السلام)وأغرقه بالماء، ومنع الناس من زيارته، وأقام المسالح (١)على طريقه للقبض على كل من تسوّل له نفسه بزيارة قبر الإمام الحسين(عليه السلام).

واتّبع المتوكل سياسة التجويع مع أهل البيت(عليهم السلام)، فقد استعمل على المدينة ومكة عمر بن الفرج، فمنع آل أبي طالب من التعرّض لمسألة الناس، ومنع الناس من البرّ بهم، وكان لا يبلغه أنّ أحداً أبرّ أحداً منهم بشيء وإن قلّ، إلاّ أنهكه عقوبة وأثقله غرماً، حتى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات يصلّين فيه واحدة بعد واحدة، ثم يرقّعنه ويجلسن على مغازلهن عواري حواسر.(٢)

وعندما قام المستعين بالأمر قتل يحيى بن عمر بن الحسين، الذي قال فيه أبو الفرج الإصفهاني: وكان (رضي الله عنه) رجلاً فارساً شجاعاً شديد البدن، مجتمع القلب، بعيداً عن رهق الشباب وما يُعاب به مثله. ولما أُدخل رأسه الى بغداد، جعل أهلها يصيحون من ذلك إنكاراً له. ودخل أبو هاشم على محمد بن عبدالله بن طاهر، فقال:

-١نقاط تفتيش مسلّحة.

-٢مقاتل الطالبيين: ٤٠٣.

أيها الأمير، قد جئتك مهنّئاً بما لو كان رسول الله حياً يعزّى به! وأدخل الأُسارى من أصحاب يحيى الى بغداد، ولم يكن رؤي قبل ذلك من الأُسارى لحقه ما لحقهم من العسف وسوء الحال، وكانوا يساقون وهم حفاة سوقاً عنيفاً، فمن تأخّر ضربت عنقه.(١)

لم ينعم الشيعة بشيء من الراحة والأمان على مدى قرون عديدة حتى جاء البويهيون في سنة (٣٢٠ هـ)، فتولوا مقاليد السلطة في بعض أرجاء الدولة الإسلامية، وكانت سيرتهم حسنة جداً، وازدهرت الثقافة في عصرهم، حتى إذا جاء السلاجقة واستولوا على بغداد سنة (٤٤٧ هـ)، قام زعيمهم طغرل بك باحراق مكتبة مرجع الشيعة وزعيمهم الشيخ الطوسي(رحمه الله) وكرسيّه الذي كان يجلس عليه للتدريس، وأحرق المكتبة التي انشأها أبو نصر سابور بن أردشير، وزير بهاء الدولة البويهي، وكانت من دور العلم المهمة في بغداد، بناها هذا الوزير الجليل في محلّة بين السورين في الكرخ سنة (٣٨١) هـ على مثال بيت الحكمة الذي بناه هارون الرشيد، وكانت مهمة للغاية، وقد جمع فيه هذا الوزير ما تفرّق من كتب فارس والعراق، واستكتب تآليف أهل الهند والصينوالروم،ونافت كتبها على عشرة آلاف من جلائل الآثار ومهام الأسفار، وأكثرها

-١مقاتل الطالبيين: ٤٠٣.

نسخ الأصل بخطوط المؤلفين، وكان من جملتها مصاحف بخط ابن مقلة.(١)

ووصفها ياقوت الحموي قائلاً: ولم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها، كانت كلّها بخطوط الأئمة المعتبرة وأُصولهم المحررة.(٢)

وفي عهد العثمانيين لم يكن الأمر أقلّ ضرراً على الشيعة، فقد كان تناهى الى مسامع السلطان سليم العثماني أنّ بعض تعاليم المذهب الشيعي قد انتشرت بين رعاياه، وقد تمسك بها بعض الأهالي، فأمر السلطان سليم بقتل كلّ من يدخل في هذه الشيعة .(٣)فقتلوا نحو أربعين ألف رجل، وأخرج فتوى شيخ الإسلام بأنه يؤجر على قتل الشيعة واشهار الحرب ضدهم.(٤)

وقد ذهب آلاف من الشيعة في مذبحة أُقيمت لهم في مدينة حلب بفتوى أصدرها الشيخ نوح الحنفي في جواب من سأله عن السبب في وجوب مقاتلة الشيعة وجواز قتلهم، قال: اعلم أسعدك الله أنّ هؤلاء الكفرة والبغاة الفجرة جمعوا بين أصناف الكفر والبغي والعناد وأنواع الفسق والزندقة والالحاد، ومن توقف في كفرهم

-١خطط الشام ١٨٥/٣، الكامل في التاريخ: ٣/١٠.

-٢معجم البلدان: ٢ /٣٤٢.

-٣كذا في المصدر.

-٤الإمام الصادق والمذاهب الأربعة لأسد حيدر: ٢٤٤/١.

وإلحادهم ووجوب قتالهم وجواز قتلهم فهو كافر مثلهم.. (الى أن قال): فيجب قتل هؤلاء الأشرار الكفّار تابوا أو لم يتوبوا. وحكم باسترقاق نسائهم وذراريهم.(١)

هذا غيض من فيض ممّا لقيه الشيعة على مرّ تاريخهم من الاضطهاد والقهر، أوردناه على وجه الاختصار، للكشف عن بعض الأسباب التي دفعت بالسلطات الحاكمة ومن يلفّ لفّها الى تشويه صورة الشيعة في أذهان الناس، لأنّ الشيعة كانوا على مرّ التاريخ شوكة في أعين سلاطين الجور والحكام الظالمين، كما وأنّ ذلك يعطينا فكرة عن المقدمات التي أدت الى تفرّق الشيعة في بعض الأحيان تبعاً لهذه الظروف الضاغطة ممّا كان يؤدي بالكثير منهم الى الوقوع في الحيرة، الأمر الذي كان يهيّء الظروف المؤاتية لنشوء بعض الفرق المنحرفة عن خط التشيّع الأصيل، والذي كان في بعض الأسباب الموجبة لنشوئها دخول بعض المنحرفين والمشبوهين في صفوف الشيعة وإظهار بعض المقالات الفاسدة وإلصاقها بالتشيّع بهدف تشويه صورته أمام

-١الفصول لمهمة في تأليف الأمة للسيد عبدالحسين شرف الدين: ١٩٥ ـ ١٩٦، عن الفتاوى الحامدية: ١/ ١٠٤، تاريخ الشيعة للشيخ المظفر: ١٤٧، التقية في فقه أهل البيت: ٥١/١.

الناس بما يتيح الفرصة للحكام الغاشمين وأعوانهم في القضاء على هذا الخطّ الإسلامي الثوري الأصيل، الذي يريد المحافظة على القيم الإسلامية التي جاء بها النبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله)، وتولّى حفظها وصيانتها أهل بيته الطاهرون الذين اعتبرهم الرسول(صلى الله عليه وآله) أعدال القرآن وقرناؤه.

الفصل الرابع

مسيرة التشيّع

لقد أدرك أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) بعد استشهاد الحسين(عليه السلام)، أنّ من بقي من الشيعة ـ بعد ذهاب الجيل العقائدي الأوّل ـ لم يصلوا إلى مرحلة من النضج في العقيدة تؤهّلهم للقيام بدورهم المطلوب، وتحمّل التضحيات الجسيمة التي يتطلبها ذلك، فانصرفوا إلى مرحلة جديدة تتولى تثقيف هؤلاء الشيعة، وترسيخ العقيدة في نفوسهم وحمايتهم من الخطوط المنحرفة، التي بدأت تغزو الساحة الإسلامية في ظلّ حكم الأُمويين، فبدأ الإمام عليّ بن الحسين(عليه السلام)هذه المهمة عن طريق بثّ التعاليم الإسلامية الحقيقية، ومحاولة الحفاظ على المسار الصحيح للإسلام، والسنّة النبوية الشريفة، إلاّ أنّ صعوبة الظروف التي تلت استشهاد الامام الحسين(عليه السلام)، وتضييق

الأُمويين الخناق على الشيعة ورصد تحركات أهل البيت(عليهم السلام)، جعلت مهمته صعبة بعض الشيء، حتى إذا تولى الإمامة إبنه محمدبن علي الباقر (عليه السلام)، كانت الأُمور قد انفرجت قليلاً، وبدأت قبضة الأُمويين بالارتخاء بعض الشيء ممّا مكّن الإمام من نشر العلوم الإسلامية عن طريق الالتقاء بالشيعة بشكل أكثر من ذي قبل، حتى إذا حان عصر إمامة ابنه جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام)كانت شمس دولة الأُمويين قد آذنت بالمغيب، وكان انشغال الأُمويين باخماد الثورات الداخلية وظهور خطر العباسيين قد أتاح فرصة جيدة للإمام الصادق(عليه السلام)للبدء بحملة واسعة لبث العلوم الإسلامية، فكان يجلس في المسجد النبويّ ويأتيه طلاب العلم من مختلف البلاد حتى بلغ عدد تلاميذه الألوف، وكانت تلك فرصة جيدة للشيعة للالتقاء بالإمام والانتهال من علوم أهل البيت(عليهم السلام)، وبثّها في مقابل ما كان يفعله أتباع المدرسة الأُخرى في بث الانحراف الذي نشره الأُمويون في الشريعة.

لقد كان الأئمة من أهل البيت(عليهم السلام) قد قرّروا الابتعاد عن الثورة المسلّحة للاطاحة بأنظمة الحكم المنحرفة، بسبب قناعتهم أن الشيعة في تلك المرحلة لم يكونوا على درجة كافية من الوعي

المطلوب، لتحمّل مسؤولية الثورة والحفاظ عليها، وما يترتب على ذلك من تضحيات، فكان الانصراف للتوعية والتثقيف أكثر أهمية من الثورة غير المتكاملة الشروط، وقد تأكّدت صحة هذا الرأي عند قيام زيد بن عليّ بثورته المسلّحة على

الأُمويين والتي انتهت بمقتله، بعد أن تخلى عنه أهل الكوفة، كما تخلّوا عن آبائه من قبل، ممّا يؤكد أنّهم لم يكونوا على درجة من الوعي كافية لتحمل أعباء الثورة.

لقد تحقق الانفراج النسبي في بداية قيام الدولة العباسية، وكانت تلك الفترة مؤاتية بالنسبة للشيعة لتلقي العلوم الإسلامية من أئمة أهل البيت(عليهم السلام)،وبخاصة من الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) الذي سمّي مذهب أهل البيت(عليهم السلام) باسمه (المذهب الجعفري). إلاّ أنّ ذلك الانفراج قد بدأ بالأُفول من جديد بسبب قلق العباسيين من ميل الناس إلى أهل البيت(عليهم السلام)، خاصة بعد ما تكشف زيف الدعوة العباسية، التي قامت أساساً في ظاهرها على الدعوة إلى الرضا من آل محمد.

ولمّا انكشف للناس زيف دعواهم وخافوا من انقلاب الناس والثورة عليهم تحت راية أهل البيت(عليهم السلام)، بدأُوا يشددون الخناق

على أئمة أهل البيت(عليهم السلام) وأتباعهم، وقمعوا بقسوة جميع الثورات التي قام بها بعض السادة العلويين، وشدّدوا الخناق على الشيعة وراقبوا أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) مراقبة شديدة حتى أودعوهم السجون سنوات طويلة، كما فعل الرشيد مع الإمام موسى بن جعفر الكاظم(عليه السلام)، أو فرضوا الحجر عليهم من خلال فرض الإقامة الجبرية عليهم في عاصمة الدولة العباسية، بعد حملهم من منازلهم في المدينة المنورة، كما حدث لباقي أئمة أهل البيت بدءاً بالإمام الرضا(عليه السلام)، وانتهاءً بالإمام الهادي والحسن العسكري(عليه السلام).

لقد كانت تلك الفترة عصيبة جداً، حيث لم يكن باستطاعة الشيعة الالتقاء بأئمّتهم(عليهم السلام)بحرية تامة، بسبب الأرصاد التي وضعها العباسيون عليهم، وقد استمرت تلك الفترة حتى واغتيال الإمام الحسن العسكري (عليه السلام)، حيث جدّ العباسيون في الوقوف على خبر ولده المهدي(عليه السلام)، الذي غاب عن الأبصار بتدبير ربّاني، واستمرت غيبته الأُولى مدة قاربت السبعين عاماً وكان الاتصال بينه وبين شيعته يتمّ عن طريق وكلائه الأربعة الذين تناوبوا على الوكالة، حتى وقعت الغيبة الكبرى، وأصبح الفقهاء هم مراجع الشيعة علمياً ودينياً وسياسياً بعد أن أرسى الأئمة الأطهار(عليهم السلام)قواعد هذه المرجعية الشامله بشكل كامل.

الفرق الإسلامية وانحرافات الغلاة:

لم تكن مسيرة التشيّع خالية من العقبات والمصاعب، إذ إنّ تضييق السلطات على الشيعة وأئمتهم ـ كما مرّ ـ واضطرارهم للتقية إبقاء على أنفسهم، وعدم قدرة الأئمة على التصريح بكلّ الحقائق دائماً وبشكل علني ـ نتيجة للرقابة الحكومية الشديدة ـ خوفاً على شيعتهم من الملاحقة والاضطهاد، قد أدى الى وقوع بعض الشيعة أحياناً في الحيرة والارتباك، وقد استغلها بعض

أصحاب النفوس المريضة والأهداف المشبوهة، بالإضافة الى أسباب أُخرى كجهل بعض العوام، ممّا أدى الى ظهور خطوط منحرفة عن المسيرة الصحيحة للتشيع، تماماً كما حدث لباقي المسلمين، حيث ظهرت فرق الخوارج والمعتزلة والجهمية والمرجئة وغيرها بسبب اختلاف المسلمين في تأوّل بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، فضلاً عن الدور الخطير الذي لعبه بعض المتمسلمين من أهل الكتاب والديانات الأُخرى وإدخالهم الاسرائيليات وبثّها بين المسلمين، الى جانب انتشار الوضع في الحديث، والذي تفاقم بعد ظهور هذه الفرق حيث كان بعض أفرادها يضع الأحاديث ويتأوّل الآيات انتصاراً لمذهبه، مع تطرّف البعض في دعواه، واعتقاد أنّ فرقته هي الفرقة

الوحيدة المحقّة وأنّ باقي الفرق كلّها في ضلال.

وانطلاقاً من هذا الأُفق الضيّق قام بتكفير جميع المسلمين وأباح أعراضهم بالسيف وقَتلَ الذريّة وسبى النساء، واشتدّت المعارك الكلامية أيضاً بين هذه الفرق، وأدى التعصب البغيض الى اختلاط الكثير من المفاهيم والتباس المصطلحات ممّا أدّى الى تسمية البعض باسماء لا تليق به.

وقد عانى مذهب أهل البيت(عليهم السلام) أشدّ المعاناة من هذه المسألة، حيث أُلحقت كثير من الفرق وأصحابها من ذوي الاعتقادات الفاسدة، بالمذهب الحقّ، لا لسبب إلاّ لأنّ بعض هذه الفرق كانت تنتحل الولاء لأهل البيت(عليهم السلام)، رغم مخالفتها لمبادئهم بشكل كلّي، ومن هؤلاء فرق الغالية التي نسبت الى الأئمة(عليهم السلام) ما لا يقرّه الشرع والعقل ولا الأئمة أنفسهم، وقالوا فيهم ما لم يقولوا هم في أنفسهم.

وكان السبب في نسبة هؤلاء الى التشيع تظاهرهم بالتمسّك بمذهب أهل البيت(عليهم السلام)، رغم عقائدهم المنحرفة التي نشأت نتيجة الغلوّ وفي ظروف خاصة من القمع والقهر لأهل البيت(عليهم السلام).

لقد أدت هذه الأسباب مجتمعة بالإضافة الى أسباب أُخرى منها الصراع على السلطة الى خلط في المفاهيم، كان من نتيجتها تضارب كبير في أقوال المؤلفين في الفرق، وبخاصة فيما يتعلق

بالشيعة، حيث إننا لا نكاد نجد اتفاقاً بين هؤلاء المؤلفين حول عدد فرق الشيعة، فبعضهم يقلل العدد الى ثلاث فرق وآخر يربو بهم عن العشرين فرقة وهكذا دواليك. وبعض هذه الفرق لا وجود لها أساساً، وبعض المؤلفين جعل من بعض الأفراد فرقاً، فالشهرستاني مثلاً يخترع فرقاً للشيعة باسم الهشامية واليونسية والزرارية نسبة الى هؤلاء الأشخاص مع كونهم أفراداً لم يُعرف أنّ لهم فرقاً قائمة بذاتها لها نظرياتها الخاصة بها، وبعض المؤلفين يدفعه التعصب لمذهبه الى الحطّ من الآخرين وتجريدهم من كلّ فضل أو علم، كالبغدادي مثلاً الذي يقول: ولم يكن ـ بحمد الله ومنّه ـ في الخوارج، ولا في الروافض، ولا في الجهمية، ولا في القدرية، ولا في المجسّمة، ولا في سائر أهل الأهواء الضالة، إمام في الفقه ولا إمام في رواية

الحديث ولا إمام في اللغة والنحو، ولا موثوق به في نقل المغازي والسير والتاريخ ولا إمام في الوعظ والتذكير ولا إمام في التأويل والتفسير، وإنمّا كان أئمة هذه العلوم على الخصوص والعموم من أهل السنّة والجماعة (١)!!وهذا الكلام الذي يحمل كلّ معاني التعسف والاجحاف بحقّ الآخرين لا يقرّه أيّ مطّلع على التراث الإسلامي وهو يعجّ

-١الفَرق بين الفِرَق: ٢٨٢.

بمؤلفات علماء المسلمين ومحدّثيهم ومؤرّخيهم من جميع الفرق والطوائف.

ومن الأمثلة على الخلط الشديد ـ لدى بعض المؤلفين: التقسيم الذي وضعه الإمام أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري المتوفى سنة (٣٢٤ هـ) في كتابه: (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين) الذي يقسم الشيعة ابتداءً الى ثلاث فرق رئيسية، ثم يفرّع فيها فرقاً أُخرى، فيجعل فرقة الغلاة خمس عشرة فرقة، ثم يذكر الإمامية ويرمز إليها بالرافضة ويقسّمها الى أربع وعشرين فرقة، ويعد الكيسانية من فرق الإمامية بينما هي من فرق الغلاة في الحقيقة ولا علاقة لها بالإمامية، ثم يذكر الزيدية ويقسّمها بدورها الى ثلاث طوائف هي الجارودية والبترية والسليمانية، ثم يقسّم هذه الفرق الى فرق أُخرى، وقد وقع الكثيرون في خطأ عدّ السليمانية من فرق الزيدية، بينما عقيدتهم مشابهة تماماً لعقيدة جمهور أهل السنّة، كما سوف يتّضح فيما بعد.

ومن المؤسف أنّ الكثير من المؤلفين المعاصرين قد ساروا على نفس النهج، واعتمدوا على كتب هؤلاء القدامى دون تمحيص أو تحقيق، ودون الرجوع الى مصادر كلّ فرقة أو طائفة لمعرفة منهجها الفكري من لسان أصحابها، بل اكتفوا بمقالة خصوم كل فرقة وما لفّقوه عنها.

إنّ ما يهمّنا من هذا كلّه أن نتعرف على تكوّن فرق الشيعة المرتبط بموضوعنا (نشأة التشيّع)، لذا سوف نحاول استقصاءها جهد الإمكان لتوضيح أثر الظروف العصيبة التي مرّت على الشيعة من جهة، والكشف عن الخلط الذي وقع فيه المؤلفون في عقائد الشيعة حين عدّوا منهم من ليس منهم، ومن لا يعتبره الشيعة أنفسهم جزءاً منهم من جهة أُخرى.

وسنبدأ أولاً بمفهوم التشيع نفسه. ثم نشير الى أهم الاتجاهات الشيعية بايضاح، ثم نعرّج على بيان موقف الشيعة وأئمتهم من الغلوّ والغلاة.

مفهوم التشيّع

لقد أورد المؤلفون عن الشيعة والتشيّع عدة تعاريف، نحاول استعراض أهمّها:

١ـ قال أبو الحسن الأشعري: إنّما قيل لهم الشيعة لأنهم شايعوا عليّاً، ويقدّمونه على سائر أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله).(١)

٢ـ أما ابن حزم فيحدّد مفهوم التشيع بقوله: ومن وافق الشيعة في أنّ علياً أفضل الناس بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله) وأحقّهم بالإمامة، وولده

١-مقالات الإسلاميين: ٦٥/١ ط القاهرة ١٩٥٠ م.

من بعده، فهو شيعيّ وإن خالفهم فيما عدا ذلك ممّا اختلف فيه المسلمون، فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيّاً.(١)

٣ـ وعرّفهم الشهرستاني بقوله: الشيعة هم الذين شايعوا عليّاً(رضي الله عنه)على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصيّة، إما جليّاً وإمّا خفيّاً، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقيّة من عنده، وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة، وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أُصولية، هي ركن الدين، لا يجوز للرسل(عليهم السلام)إغفاله وإهماله ولا تفويضه الى العامة وإرساله.

وأضاف قائلاً: ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت العصمة للأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولّي والتبرّي، قولاً وفعلاً وعقداً، إلاّ في حالة التقية.(٢)

٤ـ وقال محمد فريد وجدي: الشيعة هم الذين شايعوا عليّاً(عليه السلام)في إمامته، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج عن أولاده، قالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة، بل هي قضية أُصولية، هي ركن الدين، ولابدّ أن يكون الرسول قد نصّ على ذلك صريحاً،

١-الفصل في الملل والأهواءوالنحل: ١١٣/٢ ط. بغداد.

٢-الملل والنحل: ١٣١.

والشيعة يقولون بعصمة الأئمة من الكبائر والصغائر، والقول بالتولي والتبرّي قولاً وفعلاً، إلاّ في حال التقية إذا خافوا بطش الظالم.(١)

٥ـ ومن المؤلفين الشيعة الذين حدّدوا مفهوم التشيع، النوبختي، الذي يقول: فأول الفرق الشيعة، وهم فرقة علي بن أبي طالب(عليه السلام)المسمّون بشيعة علي(عليه السلام) في زمان النبي(صلى الله عليه وآله) وبعده، معروفون بانقطاعهم إليه

والقول بإمامته، فهم: المقداد بن الأسود، وسلمان الفارسي، وأبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، وعمّار بن ياسر، ومن وافق مودّته مودّة علي(عليه السلام)، وهو أوّل من سمّي باسم التشيع من هذه الأُمة، لأنّ اسم التشيّع قديم، شيعة إبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.(٢)

٦ـ أما الشيخ المفيد فيعرّف الشيعة بأنّهم: من شايع عليّاً وقدّمه على أصحاب رسول الله صلوات الله عليه، واعتقد أنّه الإمام بوصية من رسول الله(صلى الله عليه وآله) وبإرادة من الله تعالى أيضاً، كما يرى الإمامية، أو وصفاً كما يرى الجارودية.(٣)

٧ـ أما الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، فيتناول الكلام عن

١-دائرة معارف القرن العشرين: ٤٢٤/٥.

٢-فرق الشيعة: ١٧.

٣-هوية التشيّع، الشيخ أحمد الوائلي: ١٢، عن موسوعة العتبات المقدسة المدخل: ٩١.

النص والوصية ويربط التشيّع بالاعتقاد بكون عليّ إماماً للمسلمين بوصية من الرسول، وبإرادة من الله، ثمّ يقسم النصّ الى نوعين: الجلي والخفي.

أما النصّ الجلي فقد تفرد بنقله الشيعة الإمامية خاصة، وإن كان من أصحاب الحديث من رواه على وجه نقل أخبار الآحاد.. أما النص الخفي فيرى الطوسي أيضاً أنّ جميع الأُمّة تلقته بالقبول وإن اختلفوا في تأويله والمراد منه، ولم يقدم أحد منهم على إنكاره ممن يعتد بقوله.

ويخرج الطوسي السليمانية من الزيدية من فرق الشيعة لأنّهم لا يقولون بالنص، وإنما يقولون إنّ الإمامة شورى، وأنّها تصلح بعقد رجلين من خيار المسلمين، وأنّها تصلح في المفضول. ولما كان قول الصالحية والبترية من الزيدية في الإمامة كقول السليمانية، ينطبق عليهم ـ على رأي الطوسي ـ ما ينطبق على السليمانية.(١)

هذه هي أهم الآراء التي استعرضت مفهوم التشيّع من بعض القدامى والمعاصرين من كلا الفريقين ويمكننا أن نستنتج من كلماتهم في تبيين مفهوم التشيع أنّ لهم اصطلاحين، أحدهما: التشيع بالمعنى العام، وثانيهما التشيع بالمعنى الخاص.

١-د. عبدالله فياض: تاريخ الإمامية: ٣٢ ـ ٣٣.

وقد وقع الخلط بين هذين المفهومين عند كلّ من تطرق الى هذا الموضوع، ويمكننا من خلال مراجعتنا لأقوال المؤلفين الذين استعرضنا آراءهم، أن نعرف أنّهم يكادون يعبّرون عن التشيّع بمفهومه الخاص دون التطرق الى مفهومه العام، وهذا ما سنحاول توضيحه مع ذكر التقسيمات التي تتفرع عن كلّ من المفهومين:

أ ـ التشيّع بالمعنى العام

١ـ من هذا الضرب القول بتفضيل علي بن أبي طالب(عليه السلام)على عثمان بن عفّان فقط، دون الشيخين أبي بكر وعمر.

وهذا النوع من التشيّع كان يضمّ شريحة كبيرة من الصحابة والتابعين وتابعيهم، كما يعترف بذلك شمس الدين الذهبي في ترجمة "أبان بن تغلب" رداً على من اعترض على توثيقه مع تشيّعه، قائلاً: إنّ البدعة على ضربين: فبدعة صغرى كغلو التشيع، أو كالتشيع بلا غلو ولا تحرّف، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق، فلو رُدّ حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبوية، وهذه مفسدة بيّنة، فالشيعي الغالي في زمان السلف وعُرفهم: هو من تكلم في عثمان والزبير وطلحة ومعاوية وطائفة

ممّن حارب علياً(رضي الله عنه)وتعرّض لسبّهم.(١)

٢ـ القائلين بتفضيل علي بن أبي طالب(عليه السلام) على جميع الصحابة، ومن بينهم الشيخان أبو بكر وعمر، ولكن مع الاعتراف بصحة خلافتهما وعدم الاعتراف بوجود نص على خلافة علي(عليه السلام)أو أحد غيره.

ويمثّل المعتزلة البغداديون وبعض البصريين منهم هذا الاتجاه بشكل واضح، وقد فصّل ابن أبي الحديد المعتزلي القول في ذلك في بداية شرحه لكتاب نهج البلاغة، قائلاً:

اتفق شيوخنا كافّة رحمهم الله، المتقدّمون منهم والمتأخّرون، والبصريّون والبغداديّون على أنّ بيعة أبي بكر الصديق بيعة صحيحة شرعية، وأنها لم تكن عن نص، وإنّما كانت بالاختيار الذي ثبت ـ بالإجماع وبغير الإجماع ـ كونه طريقاً الى الإمامة.

واختلفوا في التفضيل، فقال قدماء البصريين كأبي عثمان عمرو بن عُبيد، وأبي إسحاق إبراهيم بن يسار النظام، وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وأبي معن ثمامة بن أشرس، وأبي محمد هشام بن عمور الفُوطي، وأبي يعقوب يوسف بن عبدالله الشحّام، وجماعة غيرهم: إنّ أبا بكر أفضل من علي(عليه السلام)، وهؤلاء يجعلون

١-ميزان الاعتدال: ٦/١.

ترتيب الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

وقال البغداديون قاطبة ـ قدماؤهم ومتأخروهم ـ كأبي سهل بشر بن المعتمر، وأبي موسى بن صبيح، وأبي عبدالله جعفر بن مبشر، وأبي جعفر الاسكافي، وأبي الحسين الخياط، وأبي القاسم عبدالله بن محمود البلخي وتلامذته: إنّ علياً(عليه السلام) أفضل من أبي بكر.

والى هذا المذهب ذهب من البصريين، أبو علي محمد بن عبدالوهاب الجبّائي أخيراً، وكان من قبل من المتوقفين، كان يميل الى التّفضيل ولا يصرّح به، وإذا صنّف ذهب الى الوقف في مصنفاته. وقال في كثير من تصانيفه: إن صحّ خبر الطائر فعليٌّ أفضل.(١)

١- قال ابن كثير في البداية والنهاية: ٣٨٧/٧، وهذا الحديث قد صنّف الناس فيه وله طرق متعددة، ثم أورد الروايات التي جاءت فيه، فعن الترمذي بإسناده عن أنس، قال: كان عند النبي(صلى الله عليه وآله) طير فقال: "اللهم ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير"، فجاء علي فأكل معه، ثم يورد ابن كثير روايات متعددة في هذا الشأن بطرق مختلفة، وقال إنها تصل الى بضع وتسعين، وقال: وقد جمع الناس في هذا الحديث مصنفات مفردة منهم أبو بكر بن مردويه والحافظ أبو ظاهر محمد بن أحمد بن حمدان فيما رواه شيخنا أبو عبدالله الذهبي، ورأيت فيه مجلداً في جمع طرقه وألفاظه لأبي جعفر بن جرير الطبري المفسر صاحب التاريخ، ثم وقفت على مجلد كبير في رده وتضعيفه سنداً ومتناً للقاضي أبي بكر الباقلاني المتكلم، وبالجملة ففي القلب من صحة هذا الحديث نظر وإن كثرت طرقه...

لكن ردّ هذا الحديث رغم كثرة طرقه كان بسبب مخالفته لعقيدة الجمهور في التفضيل، لأن الحديث يدل على أفضلية علي(عليه السلام) على جميع الخلق بعد النبي(صلى الله عليه وآله)، وقد أخرج الحديث بألفاظ متعددة عدد كبير من الحفاظ والمحدثين، مثل: الترمذي: ح٣٧٢١، الطبري: ٢٢٦/١، ٩٦/٧، ٣٤٣/١٠، الذهبي في ميزان الاعتدال: ٢٢٨٠، ٢٦٣٣، ٧٦٧١، ٨٥٠٦، وابن حجر في لسان الميزان: ٧١/١، ٨٥، والحديث مذكور أيضاً في كنز العمال: ٤٦٥٠٧، ٣٩٦٤، والمشكاة: ٦٠٨٥، مجمع الزوائد: ١٢٥/٩، والاتحاف: ١٢٠/٧، والتذكرة: ٩٦٩٦، وتاريخ دمشق: ٢٢٢/٥، ٣٤٢/٧، تاريخ جرجان: ١٧٦ وغيرها.

ثم إن قاضي القضاة (رحمه الله)، ذكر في شرح المقالات لأبي القاسم البلخي، أنّ أبا علي(رحمه الله) ما مات حتى قال بتفضيل علي(عليه السلام)، وقال: إنّه نقل ذلك عنه سماعاً، ولم يوجد في شيء من مصنّفاته.

وقال أيضاً: إنّ أبا عليّ (رحمه الله) يوم مات استدنى ابنه أبا هاشم إليه، وكان قد ضعف عن رفع الصوت، فألقى إليه أشياء، ومن جملتها القول بتفضيل علي(عليه السلام).

وممّن ذهب الى تفضيله(عليه السلام) من البصريين: الشيخ أبو عبدالله الحسين بن علي البصري(رضي الله عنه)، كان متحقّقاً بتفضيله ومبالغاً في ذلك، وصنّف فيه كتاباً مفرداً.

وممّن ذهب الى تفضيله(عليه السلام) من البصريين: قاضي القضاة أبو الحسن عبدالجبار بن أحمد(رحمه الله)، ذكر ابن متّويه عنه في كتاب (الكفاية) في علم الكلام أنّه كان من المتوقّفين بين عليّ(عليه السلام)وأبي بكر، واحتجّ لذلك وأطال في الاحتجاج. فهذان المذهبان كما عرفت.

وذهب كثير من الشيوخ رحمهم الله الى التوقف فيهما؛ وهو قول أبي حذيفة واصل بن عطاء، وأبي الهذيل محمد بن الهذيل العلاّف، من المتقدمين، وهما ـ وإن ذهبا الى التوقف بينه(عليه السلام)وبين أبي بكر وعمر ـ قاطعان على تفضيله على عثمان.

ومن الذاهبين الى الوقف: الشيخ أبو هاشم عبدالسلام بن أبي عليّ رحمهما الله، والشيخ أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري (رحمه الله).

وأما نحن فنذهب الى ما يذهب إليه شيوخنا البغداديون من تفضيله(عليه السلام)، وقد ذكرنا في كتبنا الكلامية ما معنى الأفضل، وهل المراد به الأكثر ثواباً، أو الأجمع لمزايا الفضل والخلال الحميدة، وبيّنا أنه (عليه السلام) أفضل على التفسيرين معاً.(١)

ب ـ التشيّع بالمعنى الخاص

وهو القول بتفضيل عليّ بن أبي طالب(عليه السلام) على الأُمة كلّها بعد النبي(صلى الله عليه وآله) مع القول بوجود نصّ صريح من النبيّ(صلى الله عليه وآله) على إمامته، وبأمر من الله سبحانه وتعالى، وأنّ الإمامة من بعده في عقبه.

وهذا هو المفهوم الذي تكوّن منذ عهد الرسالة النبوية

١-شرح نهج البلاغة: ٧/١.

الشريفة وحمل أعباءه عدد من الصحابة المقرّبين للنبي(صلى الله عليه وآله)وأوصلوه الى غيرهم وامتدّ خطّه بعد ذلك وتعاظم على مرّ الأيام وكُتب له الخلود الى يومنا هذا والى ما شاء الله، قد تمثّل في الشيعة الإمامية الاثني عشرية التي تتلخّص أُصول عقائدها فيما يأتي.

عقيدة الاثني عشرية:

يعتقد الشيعة الاثنا عشرية بإمامة الأئمة الاثني عشر(عليهم السلام)، وهم: علي بن أبي طالب، ثم ابنه الحسن بن علي، ثم أخوه الحسين بن علي، ثم ابنه علي بن الحسين السجّاد، ثم ابنه محمد بن علي الباقر، ثم ابنه جعفر بن محمد الصادق، ثم ابنه موسى بن جعفر الكاظم، ثم ابنه علي بن موسى الرضا، ثم ابنه محمد بن علي الجواد، ثم ابنه علي بن محمد الهادي، ثم ابنه الحسن بن علي العسكري، ثم ابنه محمد بن الحسن المهدي المنتظر صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ويستندون في عقيدتهم هذه الى النصوص المتفق عليها من الفريقين على ولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) بأمر من الله ورسوله، والتي مرّ بعضها فيما سبق، وأهمّها حديث الغدير، وكذلك حديث الثقلين الذي نصّ فيه النبي(صلى الله عليه وآله) على ضرورة التمسك بأهل بيته.

وقد بيّنا فيما سبق من هم أهل بيته، وأما باقي الأئمة، وتمامهم

اثنا عشر إماماً فيعتمدون ـ فضلاً عن النصوص التي ينفردون بها ـ على النص المتفق عليه عند الفريقين، والذي أخرجه كبار أئمة الحديث من الجمهور، وفي مقدمتهم الشيخان البخاريومسلم، فضلاً عن باقي أصحاب الصحاح والمسانيد والمعاجم الحديثية وغيرها، فقد أخرجوا ـ واللفظ للبخاري ـ عن جابر بن سمرة، قال: سمعت النبيّ(صلى الله عليه وآله)يقول: "يكون اثناعشر أميراً" فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي، إنّه قال: "كلّهم من قريش.."

وأخرجها غيره من المحدثين بألفاظ، منها: "يكون اثنا عشرخليفة"،"ويكون اثنا عشر رجلاً" و "اثنا عشر قيّماً.(١)"

وقد تحيّر علماء الجمهور في المقصود بهؤلاء الاثني عشر، فقال ابن كثير في باب: "الإخبار عن الأئمة الاثني عشر(عليهم السلام) الذين كلّهم من قريش": وليسوا بالاثني عشر الذين يدّعون إمامتهم الرافضة، فإنّ هؤلاء الذين يزعمون لم يل أُمور الناس منهم إلاّ عليّ ابن أبي طالب وابنه الحسن، وآخرهم في زعمهم المهدي المنتظر الذي غاب بسرداب في سامراء، وليس له وجود، ولا عين، ولا أثر، بل هؤلاء من الأئمة الاثني عشر المخبر عنهم في الحديث: الأئمة الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ومنهم

١-انظر صحيح البخاري: ١٠١/٩، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف، جامع الترمذي: ٥٠١/٤، سنن أبي داود: ١٠٦/٤، المعجم الكبير للطبراني: ١٩٦/٢ وغيرها.

عمر بن عبدالعزيز بلا خلاف بين الأئمة على كلا القولين لأهل السنّة في تفسير الاثني عشر.

ثم ينقل ابن كثير أقوال العلماء كالبيهقي ـ بعد إيراد نصوص الحديث ـ ولكن العدد لا يستقيم لأنّهم يحاولون إلحاق بني أُمية بالخلفاء الراشدين فيضطرون الى ادخال يزيد بن معاوية، والوليد ابن يزيد بن عبدالملك، الذي يصفه ابن كثير بقوله: "الفاسق الذي قدّمنا الحديث فيه بالذم والوعيد"، كما وأنّ العدد يربو على اثني عشر فيضطرون الى حذف بعضهم بحجة عدم الاجتماع عليهم دون الوصول الى نتيجة حاسمة، وأخيراً يقرر ابن كثير أنّ رواية أبي الجلد هي الأقرب الى الصحة لأن أبا الجلد كان قد نظر في الكتب القديمة، وفي التوراة وجد ما معناه: إنّ الله تعالى بشّر إبراهيم بإسماعيل، وإنّه ينمّيه ويكثره ويجعل من ذريّته اثني عشر عظيماً!

ثم ينقل ابن كثير قول شيخه ابن تيمية الحراني الذي مفاده: وهؤلاء المبشّر بهم في حديث جابر بن سمرة، وقرّر انّهم يكونون مفرّقين في الأُمة! ولا تقوم الساعة حتى يوجدوا، وغلط كثير ممّن تشرف بالإسلام من اليهود فظنّوا أنّهم الذين تدعو إليهم فرقة

الرافضة فاتّبعوهم.(١)

وفي هذا اعتراف منهم بأنّ أهل الكتاب قد عرفوا من كتبهم أنّ هؤلاء الاثني عشر هم الأئمة من أهل البيت(عليهم السلام) كما تقول الشيعة الاثنا عشرية، فدخلوا في الإسلام وتشيّعوا. ولا عبرة بمزاعم ابن تيمية وغيره حيث قالوا بأن أُولئك الخلفاء يكونون مفرّقين في الأُمة، إذ ليس في الحديث ما يدل على ذلك، كما أن عدّة أُولئك لم تتّم لحين هذه الساعة بعد سقوط الخلافة الإسلامية.

وينقل ابن حجر العسقلاني آراء عدد من العلماء كابن الجوزي وابن البطال وغيرهم في هذا الحديث الذي قال فيه ابن الجوزي: قد أطلت البحث عن معنى هذا الحديث، وتطلّبت مظانّه، وسألت عنه، فلم أقع على المقصود به؛ لأنّ ألفاظه مختلفة، ولا شك أنّ التخليط فيها من الرواة.(٢)

ويتّضح من ذلك: إنّ اضطراب القوم في تفسير الحديث يعود الى ألفاظ، مثل: (خليفة وأمير) وغيرها فيه، فظنّوا أنّ المقصودين بذلك هم خلفاء بني أُمية وبني العباس وغيرهم من الطواغيت، وقد فاتهم أنّ الخلافة والإمارة المقصودة هي الإمامة التي هي أوسع أُفقاً من الحكم.

١-البداية والنهاية: ٢٧٨/٦ ـ ٢٨٠، ١٧٦/٢ ذكر مولد إسماعيل (عليه السلام) من هاجر.

٢-فتح الباري: ١٨١/١٣.

وأما باقي عقائد الإمامية وأُصولهم فتتركز في:

أولاً: التوحيد، ويعني أنّ الله واحد لا شريك له ولا ند، وأنه واجب الوجود لذاته، لم يلد ولم يولد، منزّه عن الآفات والنقصان، غيرمحدود بمكان ولا زمان، وأنه ليس كمثله شيء فهو منزّه عن الجسميّة والحدوث، لا تدركه الأبصار في الدنيا والآخرة، وأنّ جميع صفاته الذاتية من حياة وقدرة وعلم وإرادة وغير ذلك هي عين ذاته.

ثانياً: العدل، قد لخّص الشيخ المفيد هذا الأصل بقوله: إنّ الله عدل كريم خلق الخلق لعبادته، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وعمّهم بهدايته، بدأه بالنعم والتفضّل عليهم بالاحسان، لم يكلّف أحداً دون الطاقة، ولم يأمره إلاّ بما جعل له عليه

الاستطاعة، لا عبث في صنعه ولا تفاوت في خلقه، ولا قبيح في فعله، جلّ عن مشاركة عباده في الأعمال، لا يعذّب أحداً إلاّ على ذنب فعله، ولا يلوم عبداً إلاّ على قبيح صنعه (لا يظلم مثقال ذرة فإن تكن حسنة يضاعفها ويؤتي من لدنه أجراً عظيماً).(١)

هذا في الوقت الذي تقول معظم الفرق الإسلامية الأُخرى، بأنّ الله قد يعذّب المحسن دون ذنب جناه، وينعم على المسيء ويدخله

١- أوائل المقالات: ٢٤.

الجنة، وفي هذا ما فيه من نسبة الظلم إليه، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، ووافق المعتزلة الشيعة في هذا الشأن، لذا أطلق عليهما مصطلح العدلية.

ثالثاً: النبوة، وهي أنّ إرسال الأنبياء الى الخلق مبشرين ومنذرين واجب، وأن الله قد أرسل أنبياءه منذ خلق آدم، وختمهم بسيّدهم وأفضلهم سيد الخلق أجمعين، محمد بن عبدالله(صلى الله عليه وآله)وبه ختمت النبوة، وأنّ شريعته خالدة الى يوم القيامة، وهو معصوم عن الخطأ والنسيان وارتكاب المعاصي والرذائل قبل البعثة وبعدها، وأ نّه لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى، وأنّه قد أدّى رسالته كاملة، وبيّن للمسلمين حدود شريعتهم، وأنّ القرآن الذي أُنزل عليه غير قديم ـ لأن القديم هو الله تعالى وحده ـ وأنّ الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو مصون من التحريف.

رابعاً: الإمامة، ويعتقد الإمامية بأنّ الإمامة لطف من الله لا ينبغي للنبيّ(صلى الله عليه وآله) أن يغفل عنه، وأنّ نبيّنا(صلى الله عليه وآله) قد أقام علي بن أبي طالب في غدير خمّ، ونصبه إماماً ودعا الى التمسك به واتّباعه في أحاديث كثيرة، كما دعا الى التمسك بالأئمة من أهل بيته(عليهم السلام).

خامساً: المعاد، وهو أن الخلائق كلّها تبعث يوم القيامة، ليجازي الله كلاً منهم على عمله، فمن أحسن فجزاؤه الحسنى، ومن أساء عاقبه الله، وأنّ الشفاعة حقّ وأنّها لأهل الكبائر من المسلمين، وأنّ

الكفار والمشركين مخلّدون في النار.

هذه هي أُصول عقائد الشيعة الاثني عشرية باختصار شديد١))، أوردناها ردّاً على الذين يدّعون على الشيعة ما ليس فيهم، كقولهم بالتجسيم وغير ذلك بهدف التشنيع عليهم ليس إلاّ.

الخطوط المنحرفة:

لقد أدّت الظروف التي نشأت بعد وفاة النبيّ(صلى الله عليه وآله) ـ من استيلاء خطّ الاجتهاد على مجريات الأُمور ـ الى تحوّل الشيعة الى خطّ معارض للسلطة خصوصاً بعد استيلاء الأُمويين على مقاليدها، ومن ثم تبعهم العباسيون وغيرهم ممّن أخذوا على عاتقهم مهمة التصدي لمناوءة التشيّع الأصيل بمختلف الوسائل بهدف القضاء عليه، ولما تبيّن أنّ ذلك ليس بالأمر الميسور، وبعد فشل جميع ممارسات القمع والتنكيل للقضاء على الشيّع، لجأت هذه السلطات الى مختلف الوسائل لتشويه صورة التشيّع في أذهان المسلمين بعد عجزهم عن القضاء عليه فعليّاً، فكان من تلك الأساليب إدخال عناصر مشبوهة في صفوف الشيعة لتتولى هذه العناصر بثّ الأفكار المسمومة في صفوف البسطاء منهم بهدف اعطاء انطباع

-١انظر عقائد الإمامية للشيخ المظفر: ٣٦، وما بعدها.

مؤداه أنّ التشيع يتبنّى هذه الأفكار المنحرفة فيتحقق الهدف وهو تنفير الناس منه، وبالتالي اضعاف شوكته وتسهيل القضاء عليه، أو على الأقل تحجيمه ومنع انتشاره والحيلولة دون تحوّله الى قوّة تهدد كيان السلطة.

ومن هنا ظهرت فرق أو شراذم من المنحرفين القائلين ببعض الآراء الفاسدة التي لا تمتّ الى الإسلام بصلة، مع زعم الانتساب الى أهل البيت(عليهم السلام)لاضفاء طابع الشرعية على أفكارهم وحركاتهم وترويجها في صفوف العوام والجهال، وقد حقّقت الكثير من تلك الشراذم بعض الأهداف الموكلة إليها في جرف البعض في ذلك التيار، ممّا دعا أئمة أهل البيت(عليهم السلام)الى التصدي بحزم لتلك الاتجاهات وفضحها وتحذير الناس منها، حتى أصبحت مسيرة التشيع تستمر في خطّها الأصيل الواضح المعالم رغم محاولات الدس والتشويه التي تعرضت لها، ولكن جهود أُولئك المنحرفين قد أثمرت نسبياً بسبب توفر بعض الظروف، ومن أهمّها دعم السلطات لها سرّاً بهدف تمزيق صفوف الشيعة، فظهرت فرق مخالفة لخط التشيّع الأصيل بدرجات متفاوتة، إضافة الى ظهور أفراد أو شراذم من الغلاة حاولت الاساءة الى التشيّع مدفوعة باغراض مختلفة سنحاول بسطها باختصار فيما بعد من خلال استعراض بعض آراء الأئمة(عليهم السلام)من أهل البيت في أُولئك الغلاة.

وقد عرفت أن التمسّك بالأئمة الاثني عشر(عليهم السلام)هو التعبير العملي للالتزام الحرفي بالنص النبوي في أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

فهو الذي يمثّل الاستمرار على خطّ النصّ وعدم الخروج عنه الى خط الاجتهاد.

غير أنّ البعض منهم لم يبق ثابتاً على ذلك فاتّجه الى من سواهم في وسط الطريق كالزيدية والإسماعيلية الذين يشتركون مع الاثني عشرية في جملة من المعتقدات ثم يفترقون عنهم في جملة أُخرى.

وإليك ملخّصاً من عقائدهم:

١ـ الزيـديــة: وهم القائلون بأفضيلة عليّ بن أبي طالب(عليه السلام) على كافة الصحابة، ولكن مع الاعتراف بصحة خلافة الشيخين أبي بكر وعمر، وجواز تقدم المفضول على الفاضل، وأنّ الإمامة من بعد الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهما السلام) هي في كلّ رجل من ولد فاطمة عالم زاهد شجاع يخرج بالسيف.

ومن تفرّعات الزيدية: (الجارودية) الذين قالوا بتفضيل علي(عليه السلام) ولم يروا مقامه يجوز لأحد سواه، وزعموا أنّ من دفع عليّاً عن هذا المكان فهو كافر، وأن الأُمة كفرت وضلّت في تركها بيعته، وجعلوا الإمامة بعده في الحسن بن علي(عليه السلام)، ثمّ في

الحسين(عليه السلام)، ثم هي شورى بين أولادهما، فمن خرج منهم مستحقاً للإمامة فهو الإمام.(١)

والملاحظ أنّ عقيدة الزيدية قريبة من التشيّع بالمعنى العام الذي تميزّت به المعتزلة البغدادية وبعض البصريين منهم. كما مرّ فيما سبق.

٢ـ الإسماعيلية: وهؤلاء ساقوا الإمامة بعد الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) الى ابنه إسماعيل الذي توفي في حياة أبيه، ولكن هؤلاء ادّعوا أنّ إسماعيل لم يمت و لا يموت حتى يملك الأرض.

ومن عقائدهم أنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، فالسموات السبع والأرضون السبع إشارة الى الأئمة السبعة، وقد جاء في كتاب قواعد عقائد آل محمد أنّ للشرائع باطناً لا يعرفه إلاّ الإمام ومن ينوب منابه، وكذلك كلّ ما ورد في الحشر والنشر وغيرها، فكلّها أمثلة ورموز الى بواطن، فمعنى الغسل تحديد العهد عليه، ومعنى الجماع مما لا عهد له في الباطن.. والصلاة الدعاء الى الإمام، والزكاة بعث العلوم لمن يتزكّى لها ويستحقها، والصوم كتمان العلم عن أهل الظاهر، والحج طلب العلم، والكعبة النبيّ، والباب عليّ، والصفا النبيّ، والمروة عليّ، والميقات الإمام، والتلبية إجابة الداعي الى

١-تاريخ الفرق الإسلامية، الفَرق بين الفرق: ٣٩.

باطنهم، والطواف بالبيت سبعاً هو الطواف بمحمّد الى تمام الأئمة السبعة... الى غيرها من العقائد الغريبة.(١)

ويمكننا أن نلاحظ أنّ هذه الفرق لا تعبّر عن التشيّع الذي أسّسه النبي(صلى الله عليه وآله) وامتدّ الى يومنا هذا والذي حملت رسالته وهمومه الشيعة الاثني عشرية.

الغلوُّ والغلاة

لقد كان الباعث لكتابة هذا المبحث ـ رغم انقراض معظم الغلاة وفرقهم ـ هو الخلط الذي وقع فيه الباحثون قديماً وحديثاً بينهم وبين الشيعة الاثني عشرية ـ اما عمداً أو جهلاً ـ فنسبوا الكثير من عقائد الغلاة للشيعة عموماً، وقد اتّخذ البعض من لفظة (الرافضة) ستاراً للتعتيم عند الكلام عن الشيعة والطعن فيهم، فهم يجمعون بين عقائد مختلف الفرق الغالية وبين عقائد غيرهم تحت اسم الرافضة أو الروافض.

إنّ ابن تيمية ـ مثلاً ـ ذكر الكثير من العقائد الفاسدة والأُمور الغريبة ونسبها الى الرافضة بشكل عام بحيث يوحي للقارئ أنّ هذه هي عقائد الشيعة عامة، ولكنّه بعد أن يستغرق عدة صفحات

١-قواعد عقائد آل محمد: ٨ باختصار.

في ذلك يعود الى القول: وممّا ينبغي ان يُعرف أنّ ما يوجد في جنس الشيعة من الأقوال والأفعال المذمومة، وإن كان أضعاف ما ذُكر، لكن قد لا يكون هذا كلّه في الإمامية الاثني عشرية ولا في الزيدية، ولكن يكون كثير منه في الغالية وفي كثير من عوامّهم.(١)

إنّ المشكلة تتلخص في أنّ الكثير من أُولئك المنحرفين والغلاة كانوا يدّعون موالاة أهل البيت(عليهم السلام)، وبما أنّ مصدر معظم تلك الفرق والحركات كانت مدينة الكوفةوالتي كانت نقطة احتكاك مع كثير من أصحاب العقائد الموروثة من قبل أهل البلاد الأصليين كالمانوية والثنوية التي نشأت في كنف المجوسية، اضافة الى عقائد الحلول والاتحاد والتناسخ التي جاءت من ديانات الهند وغيرها من البلاد المتاخمة لها، فكان انتشار هذه العقائد يجد مجالاً بين البسطاء والمنحرفين خلقياً.

ونظراً لما كان يتمتع به أهل البيت(عليهم السلام)من مكانة مرموقة في نفوس المسلمين عامة وشيعتهم من أهل الكوفة خاصة، فقد ادّعى أُولئك الغلاة الانتساب الى أهل البيت(عليهم السلام) وأدّعوا أنّهم من شيعتهم لكي يستميلوا قلوب الناس إليهم فيسهل عليهم ترويج عقائدهم.

وقد نبّه أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) الى تلك الخطط وحذّروا شيعتهم

١-منهاج السنّة النبوية: ٥٧/١.

والمسلمين عامة من مكائد الغلاة كما مرّ ويأتي.

إنّ المشكلة في الغلو هي عدم تحديد مفهومه أحياناً بشكل واضح ممّا يؤدي الى الخلط طبعاً. لذا فإنّ الأمر يحتاج الى بعض التوضيح.

فالغلوّ في اللغة: هو الخروج عن القصد وتجاوز الحد، وبهذا يكون كلّ خروج عن الاعتدال غُلوّاً.

قال ابن منظور: غلا في الدين والأمر، يغلو غلوّاً: جاوز حدّه.

وفي التنزيل: لا تغلو في دينكم... وقال بعضهم: غلوت في الأمر غلواً وغلانية وغلانياً: إذا جاوزت فيه الحدّ وأفرطت فيه...(١)

أمّا اصطلاحاً فلم نجد تعريفاً جامعاً للغلوّ، ولكن يمكننا أن نستنتج ممّا وجدناه من أقوال العلماء في مصاديق الغلو أنّه: الخروج عن القصد في الاعتقاد بأشخاص ورفعهم فوق مراتبهم بما ليس فيهم.

فالغلوّ قد يتدرج من المبالغة في الفضائل وينتهي الى رفع الأشخاص الى مرتبة النبوّة والألوهيّة. ويمكننا أن نعتبر المبالغة في الفضائل نوعاً من الغلوّ، فكتب الحديث مشحونة بفضائل مفتعلة لبعض الصحابة، وضعت أيام بني اُمية بهدف طمس فضائل

١-لسان العرب: ١٣٢/١٥.

علي(عليه السلام) والحطّ من مكانة بني هاشم ـ كما اعترف بذلك بعض ثقاة حفاظ الجمهور كالمدائني ونفطويه ـ كموافقات عمر بن الخطاب مثلاً، وكقولهم أنّ الله يتجلّى للناس عامة ولأبي بكر خاصة؛ واستحياء الملائكة من عثمان فضلاً عن مثل فضائل عائشة اُم المؤمنين وطلحة والزبير، ممن حارب علياً(عليه السلام) وهو الإمام المفترض الطاعة بالإجماع.

وهكذا غلوّ بعض المتصوفة في شيوخهم وادّعائهم اُموراً شنيعة فيهم ورفعهم فوق مراتب الأنبياء أحياناً، وما وضعه بعض أتباع أرباب المذاهب الأربعة في فضائل أئمّة مذاهبهم والغلوّ فيهم الى حدّ الشطط. كما وأنّ فرقة الروندية قد غلت في بني العباس الى حدّ الكفر، حيث ادّعت هذه الفرقة أنّ أبا هاشم أوصى الى محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب، لأنّه مات عنده بأرض الشراة في بلاد الشام، وأنه دفع إليه الوصية عن طريق أبيه علي بن عبدالله، لأن علياً كان لا يزال صغيراً، فهو الإمام وهو الله عزّ وجلّ، وهو العالم بكلّ شيء، فمن عرفه فليصنع ما شاء! ثم إنّ محمد بن علي أوصى الى ابنه إبراهيم بن محمد الملقب بالإمام، وهو أول من عُقدت له الإمامة من ولد العباس، وإليه دعا أبو مسلم الخراساني، ثم أوصى إبراهيم الى أخيه أبي العباس عبدالله بن محمد الملقّب بالسفاح، وهو أول الخلفاء العباسيين، وهو بدوره أوصى الى أخيه

أبي جعفر عبدالله بن محمد الملقب بالمنصور الذي أوصى بدوره الى ابنه المهدي محمد بن عبدالله الذي غيّر الوصية بعد تولّيه الخلافة وأنكر أن تكون الوصية من النبيّ(صلى الله عليه وآله) الى محمد ابن الحنفية، بل ادّعى أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) أوصى الى العباس بن عبدالمطلب وقال: إنّ العباس كان عمه ووارثه وأولى الناس به، وأنّ أبابكر وعمر وعثمان وعليّاً وكلّ من دخل في الخلافة بعد النبيّ(صلى الله عليه وآله)غاصبون متوثّبون عليها! فأجابوه الى ذلك، فعقد الإمامة للعباس بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله) ثم لعبدالله بن العباس، ثم لابنه علي بن عبدالله، ثم لإبراهيم بن محمد الإمام، ثم لأخيه عبدالله، ثم لأخيه أبي العباس، ثم لأخيه أبي جعفر المنصور، وهكذا...

وقالت الروندية ـ نسبة الى عبدالله الروندي ـ: انّ الإمام عالم بكلّ شيء، وهو الله عزّ وجل، وهو يحيي ويميت، وأنّ أبا مسلم الخراساني نبيّ مرسل يعلم الغيب، أرسله أبوجعفر المنصور وانّ المنصور هو الله، وانّه يعلم سرّهم ونجواهم، وأعلنوا دعوتهم ودعوا إليها، فلما بلغ المنصور ذلك عنهم أخذ منهم جماعة فأقرّوا بذلك، فاستتابهم وأمرهم بالرجوع عن قولهم ذلك، فقالوا: المنصور ربّنا، وهو يقتلنا شهداء كما قتل أنبياءه ورسله على يدي من يشاء من خلقه، وأمات بعضهم بالهدم والغرق، وسلّط على بعضهم السباع، وقبض أرواح بعضهم فجأة أو بالعلل كيفما يشاء، وذلك له، يفعل ما

يشاء بخلقه، لا يُسأل عما يفعل.(١)

والغلوّ موجود بين أهل الأديان السابقة للإسلام، فاليهود ادّعوا الأُلوهية في عزير الذي تقول بعض الروايات أنّه الذي ذكره القرآن في قوله تعالى) :**أو كالذي مرّ على قرية وهي خاويةٌ على عُروشِها قال أنّى يُحيي هذه الله بعدَ مَوتِها فأماته الله مائة عام ثم بعثه)**.(٢)

ونقل الكتاب العزيز مقالتهم الشنيعة) :**وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله٣)**(...)، وذلك لأنّ عزيراً كما تقول الروايات قد ظهرت فيه هذه المعجزة التي جعلت اليهود يعتقدون فيه الأُلوهية أو جزءاً منها.

وما حدث عند اليهود حدث مثله عند النصارى، إذ غلوا في نبيّهم عيسى وادعوا فيه الأُلوهية، فذكرهم الكتاب العزيز في نفس الآية السابقة بعد ذكر اليهود، فقال عزّ من قائل) :**وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النّصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يُضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون)**.(٤)

لهذا جاء ذمّ القرآن الكريم لهم وزجرهم عن تلك المقولات

-١أُنظر فرق الشيعة للنوبختي: ٤٦ ـ ٥٠.

-٢سورة البقرة: ٢٥٩.

-٣سورة التوبة: ٣٠.

-٤سورة التوبة: ٣٠.

الباطلة، فقال عزّ من قائل) :**يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلاّ الحق**).(١)

فليس من المستبعد إذاً أن يكون الغلو قد دخل على المسلمين بسبب احتكاكهم بأهل الكتاب مثلما ظهرت المقولات الفاسدة الأُخرى نتيجة للاحتكاك بالأقوام التي كانت تدين بديانات كالمجوسية وغيرها، فضلاً عن أنّ بعض أهل الكتاب ـ وبعضهم كان ممّن تظاهر باعتناق الإسلام ـ قد عملوا على بثّ الغلو في عقائد ضعفاء المسلمين كيداً بهم ورغبة في تدمير الإسلام من الداخل.

فالغلوّ لم تسلم منه فرق المسلمين، وأنّ اتباع هذه الفرق من العلماء وغيرهم قد اغرقوا في مدح رؤسائها الى أن خرجوا به عن طريق المعقول وتجاوزوا فيه حدود المنطق.(٢)

-١سورة النساء: ١٧١.

-٢وإليك بعض كلماتهم في ذلك:

قالوا: إنّ الله خصّ أبا حنيفة بالشريعة والكرامة. ومن كرامته انّ الخضر(عليه السلام) كان يجيئ إليه كل يوم وقت الصبح ويتعلّم منه أحكام الشريعة الى خمس سنين. فلمّا مات أبو حنيفة ناجى الخضر ربّه وقال: إلهي، إن كان لي عندك منزلة فأذن لأبي حنيفة حتى يعلّمني من القبر على حسب عادته حتى أتعلّم شرع محمد(صلى الله عليه وآله) على الكمال، فأحياه الله، وتعلّم منه العلم الى خمس وعشرين سنة. وبعد أن أكمل الخضر دراسته، أمره الله أن يذهب الى القشيري ويعلّمه ما تعلّم من أبي حنيفة. وصنّف القشيري ألف كتاب، وهي لا تزال وديعة في نهر جيحون، الى رجوع المسيح، فيحكم بتلك الكتب. لأنّه يأتي في زمان ليس فيه من كتب شرع محمد(صلى الله عليه وآله) فيتسلّم المسيح أمانة نهر جيحون، وهي كتب القشيري.

الإشاعة في أشراط الساعة: ١٢٠، والياقوتة لابن الجوزي: ٤٥.

وفي وفاة أبي حنيفة يذكرون بكاء الجنّ له، ولهم أسانيدهم أنّ الجن بكت أبا حنيفة ليلة مات، وكانوا يسمعون الصوت ولا يرون الشخص:

ذهب الفقه فلا فقه لكم ... فاتقوا الله وكونوا خلفا

مات نعمان فمن هذا الذي ... يحيي الليل إذا ما سدفا

آكام المرجان للقاضي الشبلي: ١٤٩.

=>

<=

وقالو: أحمد بن حنبل إمام المسلمين وسيد المؤمنين، وبه نحيا ونموت، وبه نبعت. فمن قال غير هذا فهو من الجاهلين.

ذيل طبقات الحنابلة: ١٣٦/١.

وجعلوا بغضه كفراً وحبّه من السنّة.

وقالوا: إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل، فأعلم أنه صاحب سنّة وجماعة.

الجرح والتعديل: ٣٠٨/١.

وأسندوا الى الشافعي أنّه قال: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر. فقيل له: تطلق عليه اسم الكفر بالله العظيم؟ فقال: نعم، من أبغض أحمد بن حنبل قصد الصحابة، ومن قصد الصحابة أبغض النبي، ومن أبغض النبي كفر بالله العظيم.

طبقات الحنابلة: ١٣/١.

فيكون الناتج من هذه القضية أن من أبغض أحمد بن حنبل كفر بالله العظيم.

نقل ابن الجوزي عن علي بن اسماعيل أنّه قال: رأيت أنّ القيامة قد قامت وكأنّ الناس قد جاءوا الى موضع عند قنطرة، لا يترك أحد يجوز حتى يجيء بخاتم، ورجل ناحية يختم للناس ويعطيهم، فمن جاء بخاتم جاز، فقلت: من هذا الذي يعطي الخواتيم؟ فقالوا: هذا أحمد بن حنبل.

ابن الجوزي: ٤٤٦.

ويقول الأسود بن سالم: أتاني آت وقال لي: يا أسود الله يقرأ عليك السلام ويقول لك: هذا أحمد بن حنبل يرد الأُمة عن الضلالة فما أنت فاعل؟ وإلاّ هلكت.

ويقول الحسن الصواف: رأيت ربّ العزة في المنام فقال لي: يا حسن من خالف أحمد بن حنبل عذب. مناقب أحمد بن حنبل،

لابن الجوزي: ٤٦٦.

ويقول أبو عبدالله السجستاني: رأيت رسول الله في المنام، فقلت: يا رسول الله من تركت لنا في عصرنا هذا من أُمتك نقتدي به في ديننا؟ قال: عليك بأحمد بن حنبل.

مناقب أحمد بن حنبل لابن الجوزي: ٤٦٨.

وقد لجأ مالك الى المنامات بنفسه، فكان يقول: ما بتّ ليلة إلاّ رأيت رسول الله(صلى الله عليه وآله).

الديباج: ٢١.

وعن خلف بن عمر: دخلت على مالك فقال لي: أُنظر ماترى تحت مصلاي. فنظرت فإذا أنا بكتاب، قال: اقرأه، فإذا فيه رؤيا رآها له بعض إخوانه. فقال: رأيت النبي(صلى الله عليه وآله) في المنام في مسجده قد اجتمع الناس عليه، فقال لهم: إني قد خبأت لكم طيباً وعلماً، وأمرت مالكاً أن يفرّقه على الناس. فانصرف الناس وهم يقولون: إذاً ينفذ مالك ما أمره رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ثم بكى، فقمت عنه.

مناقب مالك: ٨، وحلية الأولياء: ٣١٧/٦.

=>

<=

وقال محمد بن رمح: حججت مع أبي وأنا صبي لم أبلغ الحلم، فنمت في مسجد النبي(صلى الله عليه وآله)بين القبر والمنبر، فرأيت النبي(صلى الله عليه وآله) قد خرج من القبر متكئاً على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فسلّمت عليهم، فردّوا عليّ السلام، فقلت: يا رسول الله، أين أنت ذاهب؟ فقال: أُقيم لمالك الصراط المستقيم. فانتبهت، فأتيت أنا وأبي مالكاً، فوجدنا الناس مجتمعين عليه، وقد أخرج لهم الموطأ أول ما خرج.

مناقب مالك لعيسى بن مسعود الزواوي: ١٧.

وقال محمد بن رمح أيضاً: رأيت النبي(صلى الله عليه وآله) في المنام منذ أربعين سنة فقلت: يا رسول الله مالك والليث يختلفان في المسألة؟ فقال النبي(صلى الله عليه وآله): مالك وارث ورث جدّي يعني إبراهيم.

الجرح والتعديل: ٢٨/١.

وقال بشير بن أبي بكر: رأيت في النوم أني دخلت الجنة، فرأيت الأوزاعي وسفيان الثوري، ولم أرَ مالك بن أنس. فقلت أين مالك؟ قالوا: وأين مالك؟ رفع مالك رفع مالك. فما زال يقول: وأين مالك، وأين مالك، رفع مالك حتى تسقط قلنسوته.

المصدر السابق.

وروى أبو نعيم عن إبراهيم بن عبدالله قول إسماعيل بن مزاحم المروزي قال: رأيت النبي(صلى الله عليه وآله) في المنام فقلت: يا رسول الله من نسأل بعدك؟ قال: مالك بن أنس.

حلية الأولياء: ١٧٠٣/٦

وعن مصعب بن عبدالله الزبيري قال: سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) إذ أتاه رجل فقال أيّكم مالك؟ فقالوا: هذا. فسلّم عليه، واعتنقه، وضمّه الى صدره وقال: والله لقد رأيت رسول الله(صلى الله عليه وآله)البارحة جالساً في هذا الموضع، فقال: ائتوا بمالك. فأُتي بك ترعد فرائصك، فقال: ليس بك بأس يا أبا عبدالله، وكنّاك وقال: اجلس. فجلست. قال: افتح حجرك. ففتحته، فملأه مسكاً منثوراً، وقال: ضمّه إليك، وبثّه في أُمتي. قال: فبكى مالك وقال: الرؤيا تسر و لا تغر وإن صدقت رؤياك فهو العلم الذي أودعني الله.

الإنتقاء: ٣٩، وشرح الموطأ للزرقاني: ٤/١ قال العدوي: لما مات شيخنا شيخ الإسلام اللقاني رآه بعض الصالحين في المنام فقال: ما صنع الله بك؟ فقال: لما أجلسني الملكان في القبر يسألاني أتاني الإمام مالك فقال: مثل هذا يحتاج الى سؤال في إيمانه؟ تنحيا عنه، فتنحيا عني.

مشارق الأنوار للعدي: ٢٢٨.

ومنها: إنّ النبي(صلى الله عليه وآله) هو الذي سمى كتاب مالك بالموطأ وأ نّه سئل(صلى الله عليه وآله) في المنام: أنّ مالك والليث يختلفان في المسألة فأيّهما أعلم؟ فقال: مالك وارث جدي يعني إبراهيم(عليه السلام).

مناقب مالك للزاوي: ١٨.

وانّه سئل(صلى الله عليه وآله) مرّة أُخرى في المنام: من نسأل بعدك يا رسول الله؟ فقال: مالك بن أنس.

مناقب مالك للزاوي: ١٨ نقلاً عن الإمام الصادق والمذاهب الأربعة لأسد حيدر.

فكما أن الديانات السابقة على الإسلام لم تسلم من الغلو بمختلف مظاهره ومصاديقه، كذلك لم تسلم منه فرق المسلمين، إلاّ أن المؤرخين للفرق والباحثين فيها قلّما ينسبون الغلو الى احدى

فرق الإسلام باستثناء الشيعة تمشياً مع الخط الذي رسمته الحكومات المعادية لمذهب أهل البيت(عليهم السلام) منذ قرون متطاولة، رغم أننا ذكرنا باختصار عقائد الشيعة الإمامية الاثني عشرية وبيّنّا أنّ التوحيد وتنزيه الربِّ تعالى هو من صلب عقيدتهم، وسوف نستعرض أقوال بعض علماء الشيعة الاثني عشرية القدماء والمعاصرين حول الغلو، ليتبين موقف الاثني عشرية منه ورأيهم في الغلاة.

قال الشيخ المفيد: والغلاة من المتظاهرين بالإسلام، هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته الى الإلهية والنبوة ووصفوهم بالفضل في الدين والدنيا الى ما تجاوزوا فيه الحد وخرجوا من القصد، وهم ضلاّل كفار حكم فيهم أمير المؤمنين بالقتل والتحريق بالنار، وقضت الأئمة عليهم بالاكفار والخروج عن الإسلام.(١)

وقال الشيخ الصدوق: اعتقادنا في الغلاة والمفوضة أنّهم كفّار بالله ـ جلّ جلاله ـ وأنّهم شرّ من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والحرورية، ومن جميع أهل البدع والأهواء المضلّة.(٢)

وقال المحقق الحلي: وأما الغلاة، فخارجون عن الإسلام

١-تصحيح الاعتقاد: ٦٣.

٢-الاعتقادات: ١٠٩.

وإن انتحلوه.(١)

وقال النراقي: لا ينبغي الريب في نجاسة الغلاة، وهم القائلون بألوهية عليّ أو أحد من الناس.(٢)

وقال أيضاً: وكذا لا تجوز الصلاة على النواصب والخوارج والغلاة، وإن كانوا من المنتحلين للإسلام بالاجماع.(٣)

وقال الشيخ الجواهري: أما الغلاة والخوارج والنواصب وغيرهم ممن عُلم منهم الانكار لضروريات الدين، فلا يرثون المسلمين قولاً واحداً.(٤)

وقال الآقا رضا الهمداني: بقي الكلام في بعض الفرق المحكوم بكفرهم منهم: الغلاة، ولا شبهة في كفرهم بناء على تفسيرهم بمن يعتقد ربوبية أميرالمؤمنين(عليه السلام) أو غيره من الخلق.(٥)

وقال السيد محمد رضا الگلپايگاني: مسألة ٧٤٨: يشترط في الذابح أن يكون مسلماً أو بحكمه كالمتولد منه، فلا تحلّ ذبيحة الكافر مشركاً كان أم غيره، حتى الكتابي على الأقوى، ولا يشترط

١-المعتبر: ٩٨/١.

-٢مستند الشيعة: ٢٠٤/١.

-٣المصدر السابق: ٢٧٠/٦.

-٤جواهر الكلام: ٣٢/٣٩.

-٥مصباح الفقيه: ج١: ق٢: ٥٦٨.

فيه الإيمان، فتحل ذبيحة جميع فرق الإسلام عدا النواصب المحكوم بكفرهم، وهم المعلنون بعداوة أهل البيت(عليهم السلام) وإن أظهروا الإسلام، وكذا غيرهم من المنتحلين للإسلام المحكوم بكفرهم، مثل الغلاة والخوارج.(١)

فمن هنا يتبيّن أنّ علماء الشيعة يحكمون بكفر الغلاة ونجاستهم ويرتّبون على ذلك أحكاماً فقهيّة تقضي بنجاسة الغلاة وعدم استحلال ذبائحهم ومنع توريثهم.

أما علماء الجرح والتعديل من الشيعة: فموقفهم من الغلاة في غاية الوضوح، فمنهم:

١ـ عبدالله بن سبأ:

قال الكشي في ترجمته: كان يدّعي النبوة، وأنّ علياً(عليه السلام)هوالله، فاستتابه ثلاثة أيام فلم يرجع فأحرقه بالنار في جملة سبعين رجلاً، ادعوا فيه ذلك.(٢)

وقال فيه الشيخ الطوسي وابن داود: عبدالله بن سبأ الذي رجع الى الكفر وأظهر الغلوّ.(٣)

وقال فيه العلامة الحلّي: غال ملعون حرّقه أمير المؤمنين (عليه السلام)

-١هداية العباد: ٢١٧/٢.

-٢رجال الكشي: ١ / ٣٢٣ الرقم ١٧٠.

-٣رجال الطوسي: ٥١، رجال ابن داود: ٢٥٤.

بالنار، كان يزعم أنّ عليّاً (عليه السلام)إله، وأ نّه نبيّ، لعنه الله.(١)

وأخرج الكشّي عن أبان بن عثمان، قال: سمعت أبا عبدالله ـ يعني الإمام الصادق (عليه السلام) ـ يقول: لعن الله عبدالله بن سبأ، إنّه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين(عليه السلام)! وكان والله أمير المؤمنين(عليه السلام) عبداً لله طائعاً، الويل لمن كذب علينا، وإنّ قوماً يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، نبرأ الى الله منهم، نبرأ الى الله منهم.(٢)

وروى الكشّي عن عبدالله، قال: قال أبو عبدالله(عليه السلام): "إنّا أهل بيت صدّيقون، لا نخلو من كذّاب يكذب علينا ويسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس، كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) أصدق الناس لهجة وأصدق البرية كلّها،وكان مسيلمة يكذب عليه.

وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) أصدق من برأ الله بعد الرسول، وكان الذي يكذب عليه ويعمل في تكذيب صدقه ويفتري على الله الكذب:

عبدالله بن سبأ.(٣)"

٢ـ وفي بحار الأنوار زيادة على ما تقدم: وكان أبو عبدالله الحسين بن علي(عليه السلام) قد أُبتلي بالمختار، ثم ذكر أبو عبدالله(عليه السلام)الحارث الشامي وبناناً، فقال: كانا يكذبان على عليّ بن الحسين(عليه السلام)،

-١الخلاصة: ٢٥٤.

-٢رجال الكشي: ١ /٣٢٤ الرقم ١٧١.

-٣رجال الكشي: ١ /٣٢٤ الرقم ١٧٤.

ثم ذكر المغيرة بن سعيد، وبزيعاً، والسري، وأبا الخطاب، ومعمراً، وبشار الشعيري، وحمزة الترمذي، وصائد النّهدي، فقال: لعنهم الله، إنّا لا نخلو من كذّاب يكذب علينا أو عاجز الرأي، كفانا الله مؤونة كلّ كذاب وأذاقهم حرّ الحديد.(١)"

موقف الأئمة الأبرار وشيعتهم من الغلاة

لقد أخبر النبيّ الكريم(صلى الله عليه وآله) أصحابه بما سيكون في أُمته من الفتن، وكان من بين الأُمور التي أسرّها الى وصيّه عليّ بن أبي طالب(عليه السلام): أنّ قوماً ينتحلون محبته سيغلون فيه غلوّاً يخرجهم من ملّة الإسلام ويدخلهم في ملّة الكفر والشرك، فعن أحمد بن شاذان بإسناده الى الإمام الصادق(عليه السلام) عن آبائه عن علي(عليه السلام)، قال: "قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): يا عليّ، مثلك في أُمتي مثل المسيح عيسى بن مريم، افترق قومه ثلاث فرق: فرقة مؤمنة، وهم الحواريون، وفرقة عادوه وهم اليهود، وفرقة غلوا فيه فخرجوا عن الإيمان، وإن أُمتي ستفترق فيك ثلاث فرق: ففرقة شيعتك

وهم المؤمنون، وفرقة عدوّك وهم الشاكّون، وفرقة تغلو فيك وهم الجاحدون، وأنت في الجنة يا علي وشيعتك ومحبّ شيعتك، وعدوك والغالي في النار.(٢)"

-١بحار الأنوار: ٢٦٣/٢٥.

-٢بحار الأنوار: ٢٦٥/٢٥.

موقف أمير المؤمنين علي(عليه السلام) من الغلاة

لقد تصدّى أمير المؤمنين(عليه السلام) للغلاة ولعنهم وعاقبهم بشدّة وتبرّأ منهم، فعن ابن نباتة، قال: قال أمير المؤمنين(عليه السلام): "اللهمّ إنّي بريء من الغلاة كبراءة عيسى بن مريم من النصارى، اللهمّ اخذلهم أبداً ولا تنصر منهم أحداً.(١)"

وقال(عليه السلام): "إيّاكم والغلوّ فينا، قولوا إنّا عبيد مربوبون، وقولوا في فضلنا ما شئتم.(٢)"

وعن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: جاء رجل من الأحبار الى أمير المؤمنين(عليه السلام)فقال: يا أمير المؤمنين، متى كان ربّك؟ فقال له(عليه السلام): ثكلتك أُمّك، ومتى لم يكن حتى يقال متى كان! كان ربّي قبل القبل بلا قبل وبعد البعد بلا بعد، ولا غاية ولا منتهى لغايته، انقطعت الغايات عنده فهو منتهى كل غاية.

فقال: يا أمير المؤمنين، أفنبيّ أنت؟

قال: ويلك إنّما أنا عبد من عبيد محمد(صلى الله عليه وآله).(٣)"

-١الأمالي للشيخ الطوسي: ٥٤.

-٢بحار الأنوار: ٢٧٠/٢٥.

-٣أُصول الكافي: ٨٩/١.

وقال(عليه السلام): "إنّما الوقوف علينا في الحلال والحرام، فأما النبوّة فلا.(١)"

موقف الإمام زين العابدين(عليه السلام) من الغلاة

قال (عليه السلام): لعن الله من كذب علينا، إنّي ذكرت عبدالله بن سبأ فقامت كل شعرة في جسدي، لقد ادّعى أمراً عظيماً، ما له لعنه الله؟! كان عليٌّ والله عبداً صالحاً أخا رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ما نال الكرامة من الله إلاّ بطاعته لله ولرسوله، وما نال رسول الله(صلى الله عليه وآله) الكرامة من الله إلاّ بطاعته.

وقد أخبر(عليه السلام) أبا خالد الكابلي بما سيقع في الأُمة من الغلو كما وقع عند اليهود والنصارى، فقال له: "إنّ اليهود أحبّوا عزيراً حتى قالوا فيه ما قالوا، فلا عزير منهم ولا هم من عزير، وإن النصارى أحبّوا عيسى حتى قالوا فيه ماقالوا، فلا عيسى منهم ولا هم من عيسى، وإنّا على سنّة من ذلك، إنّ قوماً من شيعتنا سيحبّونا حتى يقولوا فينا ما قالت اليهود في عزير، وما قالت النصارى في عيسى بن مريم، فلا هم منا ولا نحن منهم.(٢)"

موقف الإمام محمد الباقر(عليه السلام) من الغلاة

عن زرارة، عن أبي جعفر(عليه السلام)، قال: سمعته يقول: "لعن الله بنان البيان، وأنّ بناناً لعنه الله كان يكذب على أبي، أشهد أن أبي علي بن الحسين

١-بحار الأنوار: ٨٣/٢٦، دراسات في الحديث والمحدثين لهاشم معروف الحسني: ٢٩٩.

٢-رجال الكشي: ٣٣٦/٢.

كان عبداً صالحاً.(١)"

موقف الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) من الغلاة

لقد استفحل أمر الغلاة في زمن الإمام الصادق(عليه السلام)، ذلك أنّ الإمام(عليه السلام)كان قد بدأ بنشر العلوم المختلفة بين تلاميذه، حتى طار صيته في الآفاق وكثر أتباعه وتلاميذه، وكان يخبر الناس بكثير من الأُمور التي يجهلونها، والتي تلقاها عن آبائه(عليهم السلام)، عن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فتوهم بعض البسطاء أنّ الإمام يعلم الغيب، وأنّ علم الغيب يستلزم الألوهية، وقد استغلّ بعض الدهاة هؤلاء البسطاء لتحقيق أغراضهم في تخريب عقائد الناس، وبخاصة الذين دخلوا في الإسلام حديثاً، من السودان والزط وغيرهم ممن كانوا حديثي عهد بعقائدهم المتوارثة، وكذلك استغلال بعض احتياجاتهم المادية والروحية فحرفوهم عن جادة الصواب، حتى قالوا في الإمام الصادق(عليه السلام) ما قالوا، فقد روى مالك بن عطية عن بعض أصحاب أبي عبدالله(عليه السلام)، قال: خرج إلينا أبو عبدالله (عليه السلام) وهو مغضب، فقال: إني خرجت آنفاً في حاجة، فتعرّض لي بعض سودان المدينة فهتف بي: لبيك يا جعفر بن محمد لبّيك، فرجعت عودي على بدئي الى منزلي

-١رجال الكشي: ٥٩٠/٤.

خائفاً ذعراً مما قال، حتى سجدت في مسجدي لربي وعفّرت له وجهي وذلّلت له نفسي وبرئت إليه مما هُتف بي، ولو أنّ عيسى بن مريم عدا ماقال الله فيه إذاً لصمّ صمّاً لا يسمع بعده، وعميَ عميً لا يبصر بعده أبداً، وخرس خرساً لا يتكلم بعده أبداً، ثم قال: لعن الله أبا الخطاب وقتله بالحديد.(١)

وروى أبو عمرو الكشّي عن سعد، قال: حدّثني أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسين ابن سعيد بن أبي عمير، عن هشام بن الحكم عن أبي عبدالله(عليه السلام)، قال: إنّ بناناً والسري وبزيعاً لعنهم الله تراءى لهم الشيطان في أحسن ما يكون صورة آدمي من قرنه الى سرّته.

قال: فقلت إنّ بناناً يتأول هذه الآية: (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) .(٢)إنّ الذي في الأرض غير إله السماء، وإله السماء غير إله الأرض، وأنّ إله السماء أعظم من إله الأرض، وأنّ أهل الأرض يعرفون فضل إله السماء ويعظّمونه، فقال: والله ما هو إلاّ وحده لا شريك له، إله من في السماوات وإله من في الأرضين، كذب بنان عليه لعنة الله، لقد صغّر الله جلّ وعزّ، وصغّر عظمته.(٣)

وروى الكشي بإسناده عن أبي عبدالله(عليه السلام)، في قول الله عزّ جل:

-١الكافي: ٢٢٦/٨.

-٢الزخرف: ٨٤.

-٣رجال الكشيء: ٥٩٢/٤.

)هل أُنبّئكم على من تنزّل الشياطين* تنزّل على كلّ أفّاك أثيم).(١)

قال(عليه السلام): "هم سبعة: المغيرة بن سعيد، وبنان، وصائد، وحمزة بن عمار الزبيدي، والحارث الشامي، وعبدالله بن عمرو بن الحارث، وأبو الخطاب.(٢)"

وأخرج الكشي عن حمدويه، قال: حدثنا يعقوب، عن ابن أبي عمير، عن عبدالصمد بن بشير عن مصادف، قال: لما أتى القوم الذين أتوا بالكوفة (٣)ودخلت على أبي عبدالله(عليه السلام)فأخبرته بذلك، فخرّ ساجداً وألزق جؤجؤه بالأرض وبكى، وأقبل يلوذ باصبعه ويقول: بل عبدالله، قنٌّ داخِر، مراراً كثيرة، ثم رفع رأسه ودموعه تسيل على لحيته، فندمت على إخباري

إيّاه، فقلت: جعلت فداك، وما عليك أنت ومن ذا؟ فقال: يا مصادف، إن عيسى لو سكت على ما قالت النصارى فيه لكان حقاً على أن يُصمّ سمعه ويعمي بصره، ولو سكتُّ عما قال فيَّ أبو الخطاب لكان حقاً على الله أنّ يصمّ سمعي ويعمي بصري.(٤)

وروى الكليني عن سدير، قال: قلت لأبي عبدالله(عليه السلام): إنّ قوماً يزعمون أ نّكم آلهة يتلون بذلك علينا قرآناً: (وهو الذي في السماء إله

-١الشعراء: ٢٢١ و٢٢٢.

-٢رجال الكشي: ٥٩١/٤.

-٣يعني قولهم بربوبية الإمام.

-٤رجال الكشي: ٥٨٨/٤.

وفي الأرض إله).(١)

فقال: يا سدير! سمعي وبصري وبشري ولحمي ودمي وشعري من هؤلاء براء، برئ الله منهم، ماهؤلاء على ديني ولا على دين آبائي، والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلاّ وهو ساخط عليهم. قال:

قلت: وعندنا قوم يزعمون أ نّكم رسل يقرأون علينا بذلك قرآناً: (يا أيّها الرُسل كلوا من الطّيبات واعملوا صالحاً إنّي بما تعملون عليم).(٢)

فقال: يا سدير! سمعي وبصري وبشريولحمي ودمي من هؤلاء براء وبرئ الله منهم ورسوله، ما هؤلاء على ديني ولا على دين آبائي، والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلاّ وهو ساخط عليهم. قال:

فقلت: فما أنتم؟ قال: نحن خُزّان علم الله، نحن تراجمة أمر الله، نحن قوم معصومون، أمر الله تبارك وتعالى بطاعتنا، ونهى عن معصيتنا، نحن الحجة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض.(٣)

وكان المغيرة بن سعيد أحد أقطاب الغلاة الذين يستميلون البسطاء بأساليب من الخداع والسحر، ثم يزيّنون لهم الغلوّ في الأئمة(عليهم السلام)، فتصدّى له الإمام الصادق(عليه السلام)وأخبر أصحابه بحقيقة

-١الزخرف: ٨٤.

-٢المؤمنون: ٥١.

-٣أُصول الكافي: ٢٦٩/١.

هذا المغالي وكشف ألاعيبه وفضحه، فقال لهم يوماً: لعن الله المغيرة ابن سعيد، ولعن يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر والشعبذة والمخاريق، إنّ المغيرة كذب على أبي(عليه السلام)، فسلبه الله الإيمان، وإنّ قوماً كذبوا عليَّ، مالهم أذاقهم الله حرّ الحديد، فوالله مانحن إلاّ عبيد الذي خلقنا واصطفانا، لا نقدر على ضر ولا نفع إن رحمنا فبرحمته، وان عذبنا فبذنوبنا، والله مالنا على الله من حجة، ولا معنا من الله براءة، وإنّا لميتون و مقبورون ومنشورون ومبعوثون وموقوفون ومسؤولون، مالهم لعنهم الله! فلقد آذوا الله، وآذوا رسول الله(صلى الله عليه وآله)في قبره، وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي(عليهم السلام)، وها أنا ذا بين أظهركم، لحم رسول الله(صلى الله عليه وآله)وجلد رسول الله(صلى الله عليه وآله)، أبيت على فراشي خائفاً وجلاً مرعوباً، يأمنون وأفزع، ينامون على فرشهم وأنا خائف ساهر وجل، أتقلقل بين الجبال والبراري. أبرأ الى الله ممّا قال فيّ الأجدع البرّاد عبد بني أسد، أبو الخطاب لعنه الله، والله لو ابتلوا بنا وأمرناهم بذلك لكان الواجب أن لا يقبلوه، فكيف وهم يروني خائفاً وجلاً؟ استعدي الله عليهم، واتبرّأ الى الله منهم، أُشهدكم أني امرؤ ولدني رسول الله(صلى الله عليه وآله)إن أطعته رحمني، وان عصيته عذبني عذاباً شديداً، أو أشدّ عذابه.

كما نفى الإمام الصادق(عليه السلام) ما ينسبه إليه الغلاة من علم الغيب والخلق والرزق وغير ذلك، فعن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبدالله(عليه السلام): إنهم يقولون، قال: ما يقولون؟ قلت: يقولون: تعلم قطر

المطر، وعدد النجوم، وورق الشجر، ووزن ما في البحر، وعدد التراب. فقال: سبحان الله، سبحان الله! والله ما يعلم هذا إلاّ الله.

وقيل له: إنّ فلاناً يقول: إنّكم تقدّرون أرزاق العباد؟ فقال: ما يقدّر أرزاقنا إلاّ الله. ولقد احتجت الى طعام لعيالي، فضاق صدري، وأبلغت بي الفكرة في ذلك حتى أحرزت قوتهم، فعندها طابت نفسي.

وعن زرارة، قال: قلت للصادق(عليه السلام): إنّ رجلاً من ولد عبدالله بن سبأ يقول بالتفويض، قال: وما التفويض؟ قلت: يقولون إن الله عزّ وجلّ خلق محمداً (صلى الله عليه وآله)وعلياً(عليه السلام)، ثم فوّض الأمر إليهما، فخلقا ورزقا وأحييا وأماتا. فقال(عليه السلام): كذب عدو الله، إذا رجعت إليه فاقرأ عليه الآية التي في سورة الرعد: (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كلّ شيء وهو الواحد القهّار).(١)

فانصرفت الى الرجل، فأخبرته بما قال الصادق(عليه السلام)، فكأنما ألقمته حجراً، أو قال: كأنما خرس.

وعن المفضّل قال: قال أبو عبدالله(عليه السلام) وذكر أصحاب أبي الخطاب والغلاة، فقال لي: يا مفضّل! لا تقاعدهم ولا تواكلهم ولا تشاربهم، ولا تصافحهم ولا توارثهم.

-١سورة الرعد: ١٦.

موقف الإمام موسى الكاظم(عليه السلام) من الغلاة

لقد أُبتلي الإمام موسى الكاظم(عليه السلام) ـ كما أُبتلي آباؤه ـ بالغلاة الذين قالوا فيه وفيهم أقوالاً ما أنزل الله بها من سلطان. ومن أخطر الغلاة الذين ظهروا في عهد إمامة الكاظم (عليه السلام) هو محمد بن بشير، وكان من أصحابه ثم غلا فيه، حتى قال بربوبيته بعد وفاته وادّعى النبوّة لنفسه.

وقد قتل محمد بن بشير وكان سبب قتله أنّه كان معه شعبذة ومخاريق، فكان يظهر الواقفة أنّه ممن وقف على عليّ بن موسى(عليه السلام)، وكان يقول في موسى بالربوبية ويدّعي لنفسه أنّه نبيّ.(١)

وقد تبعه على عقيدته الفاسدة قوم من البسطاء الذين خدعهم وسمّوا بالبشرية لانتسابهم الى عقيدته. ومن عقائدهم الباطلة أنّ العبادات المفروضة عليهم، والواجب أداؤها هي الصلاة والصوم وإعطاء الخمس، أمّا الزكاة والحج وسائر العبادات الأُخرى فهي ساقطة عنهم.

وقالوا بتناسخ الأئمة، أي كلّهم إمام واحد ينتقلون من بدن الى بدن.

-١رجال الكشي: ٧٧٧/٦.

وقالوا: إنّ المواساة بينهم واحدة في المأكولات والمشروبات والأموال والفروج، وأباحوا اللواط، واستندوا في ذلك الى قوله تعالى: (أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً).(١)

وعندما توفي الإمام موسى الكاظم(عليه السلام)، ادّعى هؤلاء أنّه لم يمت ولكنه غاب واستتر وهو المهدي المبشّر به، وأنه قد استخلف على الأُمة محمد بن بشير وأقامه مقام نفسه.

وقد روى الكشّي عن عليّ بن حديد المدائني، فقال: سمعت من سأل أبا الحسن الأول ـ يعني موسى الكاظم(عليه السلام) ـ فقال: إني سمعت محمد بن بشير يقول: إنّك لست موسى بن جعفر الذي أنت إمامنا وحجّتنا فيما بيننا وبين الله تعالى.

قال، فقال: لعنه الله (ثلاثاً)، أذاقه الله حرّ الحديد، قتله الله أخبث مايكون من قتلة، فقلت له: جعلت فداك، إذا أنا سمعت منه، أوليس حلال لي دمه مباح، كما أُبيح دم الساب لرسول الله(صلى الله عليه وآله)وللإمام؟ فقال: نعم حل والله دمه وأباحه لك ولمن سمع ذلك منه.

قلت: أوليس هذا بسابّ لك؟ قال: هذا سابّ الله وسابّ لرسول الله وسابّ لآبائي وسابّي، وأيّ سبّ يقصر عن هذا ولا يفوقه هذا القول؟!

فقلت: أرأيت إذا أتاني لم أخف أن أغمز بذلك بريئاً ثم لم أفعل

-١الشورى: ٥٠.

ولم أقتله، ما عليّ من الوزر؟

فقال: يكون عليك وزره أضعافاً مضاعفة من غير أن ينتقص من وزره شيء، أما علمت أنّ أفضل الشهداء درجة يوم القيامة من نصر الله ورسوله بظهر الغيب وردّ عن الله ورسوله (صلى الله عليه وآله).(١)

وقد ورد لعن محمد بن بشير على لسان الإمام الكاظم(عليه السلام)ودعا عليه. روى الكشّي عن عليّ بن أبي حمزة البطائني، قال: سمعت أبا الحسن موسى(عليه السلام)يقول: لعن الله محمد بن بشير وأذاقه حرّ الحديد، إنّه يكذب عليّ، برئ الله منه وبرئت الى الله منه، اللهمّ إني أبرأ إليك مما يدّعي فيَّ ابن بشير، اللهمّ أرحني منه، ثم قال: يا علي، ما أحد اجترأ أن يتعمّد الكذب علينا إلاّ أذاقه الله حرّ الحديد، وأنّ أبا المغيرة بن سعيد كذب على أبي جعفر(عليه السلام)فأذاقه الله حرّ الحديد، وأنّ أبا الخطاب كذب على أبي فأذاقه الله حرّ الحديد، وأنّ محمد بن بشير لعنه الله يكذب عليّ، برئت الى الله منه، اللهم إنّي أبرأ إليك ممّا يدّعيه فيَّ محمّد بن بشير، اللهمّ أرحني منه، اللهمّ إنّي أسألك أن تخلصني من هذا الرجس النجس محمد بن بشير، فقد شارك الشيطان أباه في رحم أُمّه.

وقد استجاب الله دعاء الإمام الكاظم(عليه السلام). قال علي بن حمزة: فما رأيت أحداً قُتل بأسوأ قتلة من محمد بن بشير لعنه الله.(٢)

-١رجال الكشي: ٧٧٨/٦.

-٢رجال الكشي: ٧٧٩/٦.

موقف الإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام) من الغلاة

لقد جدّ الإمام الرضا(عليه السلام) في إكمال مسيرة آبائه(عليهم السلام) في مجال محاربة الغلوّ وفضح الغلاة والتشهير بهم وتحذير الناس منهم، فعن الحسين بن خالد الصيرفي، قال: قال أبو الحسن الرضا (عليه السلام): من قال بالتناسخ فهو كافر، ثم قال: لعن الله الغلاة، ألا كانوا يهوداً، ألا كانوا نصارى، ألا كانوا مجوساً، ألا كانوا قدرية، ألا كانوا مرجئة، ألا كانوا حرورية. ثم قال(عليه السلام): لا تقاعدوهم ولا تصادقوهم، وابرؤوا منهم برئ الله منهم.(١)

فالإمام الرضا(عليه السلام) يعتبر الغلاة أسوأ أصحاب الفرق والأديان الفاسدة والمحرّفة.

وكان يقول في دعائه: اللهمّ إني أبرأ إليك من الحول والقوة، فلا حول ولا قوة إلاّ بك. اللهم إنيّ أبرأ إليك من الذين ادّعوا ما ليس لنا بحق، اللهمّ إني أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا، اللهم لك الخلق والأمر، وإياك نعبد وإياك نستعين، اللهم أنت خالقنا وخالق آبائنا الأولين وآبائنا الآخرين، اللهم لا تليق الربوبية إلاّ لك، ولا تصلح الألوهيّة إلاّ لك، فالعن النصارى الذين صغّروا عظمتك، والعن المضاهين لقولهم من بريّتك، اللهم إنّا عبيدك وأبناء عبيدك، لا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، اللهم من زعم أننا أرباب فنحن منه براء كبراءة عيسى بن مريم من

١-عيون أخبار الرضا(عليه السلام): ٢١٨/١ باب ٤٦ ح ٢.

النصارى، اللهم إنا لم ندعهم الى ما يزعمون فلا تؤاخذنا بما يقولون، واغفر لنا ما يزعمون، (ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً* إنّك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً).(١)

وعن أبي هاشم الجعفري، قال: سألت أبا الحسن الرضا(عليه السلام)عن الغلاة والمفوّضة، فقال: الغلاة كفّار، والمفوّضة مشركون، من جالسهم أو خالطهم أو واكلهم أو شاربهم أو واصلهم أو زوّجهم أو تزوّج منهم أو ائتمنهم على أمانة أو صدّق حديثهم أو أعانهم بشطر كلمة، خرج من ولاية الله عزّ وجل وولاية رسول الله(صلى الله عليه وآله) وولايتنا أهل البيت.(٢)

وقد ذكر الإمام الرضا(عليه السلام) سبباً مهماً في ظهور الغلوّ، فعن إبراهيم بن أبي محمود، عن الإمام الرضا(عليه السلام) في حديث قال:

يابن أبي محمود! إنّ مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام: أحدها: الغلو، وثانيها: التقصير في أمرنا، وثالثها: التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلوّ فينا كفّروا شيعتنا ونسبوهم الى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا ثلبونا بأسمائنا، وقد قال الله تعالى: (ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عَدْواً بغير علم).(٣)

-١الاعتقادات للشيخ الصدوق: ٩٩، الآية في سورة نوح: ٢٦ و ٢٧.

-٢عيون أخبار الرضا(عليه السلام): ٢١٩/١ باب ٤٦ ح ٤.

-٣الأنعام: ١٠٨.

يابن أبي محمود! إذا أخذ الناس يميناً وشمالاً، فالزم طريقنا، فإنّه من لزمنا لزمناه، ومن فارقنا فارقناه.(١)

لقد بيّن الإمام الرضا(عليه السلام) كيف أنّ الغلاة كانوا سبباً في نسبة الغلو الى الشيعة عامة، ولهذا نجد المؤلّفين في الفرق يعمّمون صفة الغلوّ الى الشيعة مطلقاً وخصوصاً الإمامية منهم، اعتماداً على الأخبار التي كان يروّجها الغلاة بين الناس، فيظن المخالفون أنّ هذه الأخبار قد جاءت عن طريق الشيعة عامة فينسبون الغلو إليهم.

كما وقع الكثير من المؤلفين في خطأ فاحش حينما نسبوا الى الشيعة القول بالتشبيه والتجسيم، مع أننا ذكرنا في بيان أُصول عقائد الشيعة، وفي مطلب التوحيد أنّ الشيعة أشد تنزيهاً لله تعالى وأشدّ نفياً للتشبيه والتجسيم من غيرهم.

وقد أوضح الإمام الرضا سبب ذلك في حديث حين قال: إنّما وضع الأخبار عنّا في التشبيه والجبر، الغلاة الذين صغّروا عظمة الله تعالى، فمن أحبّهم فقد أبغضنا، ومن أبغضهم فقد أحبّنا، ومن والاهم فقد عادانا، ومن عاداهم فقد والانا، ومن وصلهم فقد قطعنا، ومن قطعهم فقد وصلنا، ومن جفاهم فقد برّنا، ومن برّهم فقد جفانا، ومن أكرمهم فقد أهاننا ومن أهانهم فقد أكرمنا، ومن قبلهم فقد ردّنا، ومن ردّهم فقد قبلنا، ومن أحسن إليهم، فقد أساء

-١عيون أخبار الرضا(عليه السلام): ٢٧٢/٢ باب ما كتبه الرضا(عليه السلام) ح ٦٣.

إلينا ومن أساء إليهم فقد أحسن إلينا، ومن صدّقهم فقد كذّبنا، ومن كذّبهم فقد صدّقنا، ومن أعطاهم فقد حرمنا، ومن حرمهم فقد أعطانا، يابن خالد، من كان من شيعتنا فلا يتخذنّ منهم وليّاً ولا نصيراً.(١)

موقف الإمام علي بن محمد الهادي(عليه السلام) من الغلاة

لقد أُبتلي الإمام علي بن محمد الهادي(عليه السلام) أيضاً بجماعة من الغلاة ادّعت الأُلوهية في الأئمة(عليهم السلام)، وكان زعيمهم رجل يُدعى محمد بن نصير النميري، وإليه نُسبت فرقة النصيرية، وتابعه عليها شرذمة،على رأسها فارس بن حاتم القزويني وابن بابا القمي.

قال الكشي: وقالت فرقة بنبوّة محمد بن نصير النميري، وذلك أنّه ادّعى أنه نبيّ رسول، وأنّ علي بن محمد العسكري (عليه السلام)أرسله، وكان يقول بالتناسخ والغلو في أبي الحسن(عليه السلام)، ويقول فيه بالربوبية ويقول بإباحة المحارم، ويحلل نكاح الرجال بعضهم بعضاً، ويقول إنّه من الفاعل والمفعول به أحد الشهوات والطيّبات، وأنّ الله لم يحرم شيئاً من ذلك..وكان محمد بن موسى بن الحسن بن فرات يقوّي أسبابه ويعضده. وذكر أنّه رأى بعض الناس محمد بن نصير عياناً، وغلام له على ظهره، وأنّه عاتبه على ذلك فقال: إنّ هذا من

-١عيون أخبار الرضا(عليه السلام): ١٣٠/٢ ـ ١٣١، ح ٤٥.

اللذات، وهو من التواضع لله وترك التجبر.

قال نصر بن الصباح: الحسن بن محمد المعروف بابن بابا، ومحمد بن نصير النميري، وفارس بن حاتم القزويني، لعن هؤلاء الثلاثة علي بن محمد العسكري(عليه السلام)، وذكر أبو محمد الفضل بن شاذان في بعض كتبه أنّ من الكذّابين المشهورين ابن بابا القمي.

وقال سعد: حدّثني العبيدي، قال: كتب إليّ العسكري ابتداءً منه: أبرأ الى الله من الفهري والحسن بن محمد بن بابا القمي فابرأ منهما، فإنّي محذّرك وجميع مواليّ، وإنّي ألعنهما عليهما لعنة الله، مستأكلين يأكلان بنا الناس، فتّانين مؤذيين، آذاهما الله وأركسهما في الفتنة ركساً، يزعم ابن بابا أني بعثته نبياً وأنه باب، عليه لعنة الله، سخر منه الشيطان فأغواه، فلعن الله مَن قَبِلَ منه ذلك، يا محمد! إن قدرت أن تشدخ رأسه بالحجر فافعل فإنه قد آذاني، آذاه الله في الدنيا والآخرة.(١)

وأخرج الكشيّ عن إبراهيم بن شيبة أنّه كتب للإمام الهادي(عليه السلام)فقال: جعلت فداك، إنّ عندنا قوماً يختلفون في معرفة فضلكم بأقاويل مختلفة تشمئزّ منها القلوب، وتضيق لها الصدور، ويروون في ذلك الأحاديث، لا يجوز لنا الإقرار بها لما فيها من القول العظيم، ولا يجوز ردّها ولا الجحود بها إذا نسبت الى آبائك،

-١رجال الكشي: ٨٠٥/٦ الرقم ٩٩٩.

فنحن وقوف عليها.

من ذلك أنّهم يقولون ويتأوّلون في معنى قول الله عزّ وجل: (إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) (١)وقوله تعالى:(وأقيموا الصّلاة وآتوا الزكاة) .(٢)معناها رجل، لا ركوع ولا سجود، كذلك الزكاة معناها ذلك الرجل، لا عدد دراهم ولا إخراج مال. وأشياء تشبهها من الفرائض والسنن والمعاصي، قالوها وصيّروها على هذا الحدّ الذي ذكرت لك، فإن رأيت أن تمنّ على

مواليك بما فيه سلامتهم ونجاتهم من الأقاويل التي تصيّرهم الى العطب والهلاك. والذين ادّعوا هذه الأشياء ادّعوا أنّهم أولياء، ودعوا الى طاعتهم، منهم علي بن حسكة، والقاسم اليقطيني، فما تقول في القبول منهم جميعاً؟

فكتب(عليه السلام): ليس هذا ديننا فاعتزله.(٣)

كما أخرج عن سهل بن زياد الآدمي، قال: كتب بعض أصحابنا الى أبي الحسن العسكري(عليه السلام): جعلت فداك يا سيّدي، إنّ عليّ بن حسكة يدّعي أنه من أوليائك، وأنت الأوّل القديم، وأنّه بابك

-١العنكبوت: ٤٥.

-٢البقرة: ٤٣.

-٣رجال الكشي: ٨٠٣/٦.

ونبيّك، أمرته أن يدعو الى ذلك، ويزعم أنّ الصلاة والحج والزكاة والصوم، كلّ ذلك معرفتك ومعرفة من كان في مثل حال ابن حسكة فيما يدّعي من البابية والنبوة فهو مؤمن كامل سقط عنه الاستعباد بالصوم والصلاة والحج، وذكر جميع شرائع الدين أنّ معنى ذلك كلّه ما ثبت لك ومال الناس إليه كثيراً، فإن رأيت أن تمنّ على مواليك بجواب في ذلك تنجيهم من الهلكة.

فكتب(عليه السلام): كذب ابن حسكة عليه لعنة الله، وبحسبك إني لا أعرفه في مواليّ، ماله؟! لعنه الله! فوالله ما بعث الله محمداً والأنبياء قبله إلاّ بالحنيفية والصلاة والزكاة والصيام والحج والولاية، وما دعا محمد(صلى الله عليه وآله) إلاّ الى الله وحده لا شريك له.

وكذلك نحن الأوصياء من ولده عبيدالله لا نشرك به شيئاً، إن أطعناه رَحِمَنا، وإن عصيناه عَذَّبَنا، مالنا على الله من حجة، بل الحجة لله عزّ وجل علينا وعلى جميع خلقه، أبرأ الى الله ممن يقول ذلك وانتفي الى الله من هذا القول، فاهجروهم لعنهم الله، والجئوهم الى ضيق الطريق، فإن وجدت من أحدمنهم خلوة فاشدخ رأسه بالصخر.(١)

ويتبيّن لنا أنّ التهرب من أداء الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها كان من أسباب هذا الغلوّ.

وقد كشف الإمام الصادق(عليه السلام) هذه النيّة من الغلاة، عندما سأله

-١رجال الكشي: ٨٠٤/٦.

أحد أصحابه في مقالة قوم يدّعون أن الحسين(عليه السلام) لم يقتل، وأنّه شبّه على الناس أمره.. في حديث طويل، الى أن قال له: يابن رسول الله! فما تقول في قوم من شيعتك يقولون به؟ فقال(عليه السلام): ما هؤلاء من شيعتي، وإني بريء منهم... الى أن قال: لعن الله الغلاة والمفوّضة، فإنّهم صغّروا عظمة الله وكفروا به وأشركوا وأضلّوا فراراً من إقامة الفرائض وأداء الحقوق.

وهكذا يتبيّن لنا بجلاء أنّ الأئمة(عليهم السلام) قد جاهدوا جهاداً مريراً ضد الغلو والغلاة، وكشفوا عن نيّاتهم السيئة وأهدافهم الشرّيرة وحذّروا شيعتهم منهم، كما نصح الإمام الصادق(عليه السلام) شيعته بقوله: احذروا على شبابكم من الغلاة لا يفسدوهم، فإنّ الغلاة شرّ خلق الله، يصغّرون عظمة الله، يدّعون الربوبية لعباد الله، والله إنّ الغلاة لشرٌّ من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا.. ثم قال(عليه السلام): إلينا يرجع الغالي فلا نقبله، وبنا يلحق المقصّر فنقبله، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأن الغالي قد اعتاد ترك الصلاة والصيام والزكاة والحج، فلا يقدر على ترك عادته والرجوع الى طاعة الله عزّوجل ابداً، وإن المقصّر إذا عرف، عمل وأطاع.

ويتبيّن من الرسائل التي كان يرسلها البعض الى الأئمة يستفتونهم فيها حول الغلاة، ويشرحون لهم مقالاتهم مبدين قلقهم من انتشارها بين الشيعة، ما يدل على حرص الشيعة المخلصين على صيانة الدين من الغلاة، وقد وقفوا بوجه الغلاة بكل حزم، وناظروهم وأفحموهم في كثير من الأحيان، وعملوا بأوامر أئمّتهم

في مقاطعة أُولئك الغلاة وفضحهم.

في تلك الظروف العصيبة. رغم ملاحقة سلطات الجور لهم والتنكيل بهم والتضييق عليهم.

لقد كان من واجبهم الدفاع عن دينهم وعقيدتهم وحماية الإسلام من الانحراف المتمثّل في أُولئك الغلاة وتحذير الناس منهم، ومناظرتهم، وكشف دجلهم وشعوذتهم وألاعيبهم، في الوقت الذي كانوا لا يملكون سلطة تعينهم على الحدّ من نشاط أُولئك الغلاة، ولم تكن لهم الحرية الكافية في بثّ عقائدهم التي تمثل الإسلام الصحيح وتقف في وجه الانحراف الأُموي والعباسي، والفرق التي تبثّ الغلوّ والانحراف في أوساط المسلمين.

ورغم كلّ ذلك، فقد أثمرت جهود الشيعة المضنية بفضل الله ورحمته وعنايته، وجهاد أئمّتهم الكرام في الدفاع عن الإسلام الصحيح، وصيانته من سيطرة الانحراف عليه.

الفصل الخامس

حقيقـــة التشيّـع

لم تحظ طائفة من طوائف الإسلام باهتمام المؤلفين والباحثين قديماً وحديثاً، كما حظيت الشيعة بذلك، ويعود السبب في ذلك إلى أُمور، منها: أنَّ الشيعة كانت على مرّ الأيام تمثل المعارضة الجادة للاتجاهات المنحرفة التي تبنّتها الحكومات المتعاقبة على العالم الإسلامي. وكانت تلك الحكومات تجد نفسها مضطرّة لتسخير وسائل إعلامها ضد هذه الطائفة وتسعى في الحطّ منها وإظهارها أمام المسلمين بمظهر الفرقة الزائغة عن الحقّ، وتسميتها بالمبتدعة.

ومن ناحية أُخرى فإن التفاف الشيعة حول أهل البيت(عليهم السلام)، والاستهداء بتعاليمهم دون سواهم، وما كان يحظى به أهل البيت النبويّمن محبّة واحترام من قبل المجتمع الاسلامي، كان يثير مخاوف هذه الحكومات من أن يبثّ الشيعة تعاليم أهل البيت بين الناس، الذين كان أغلبهم قد وقعوا ضحية التعاليم المنحرفة التي روّجتها الحكومات الظالمة، ونشر الأحاديث المفتعلة المنسوبة للنبيّ(صلى الله عليه وآله)والتي كانت تحاول اظهار هذه الحكومات على أنّها أنظمة إسلامية تستمدّ شرعيّتها من تعاليم الإسلام. لذا كان لابدّ لها من الوقوف بوجه المدّ الشيعي وتحديده لمنع تسرّب أفكاره الثورية

الصحيحة في صفوف المسلمين.

فلم تجد هذه الحكومات والحال هذه بداً من الاهتمام بهذه الطائفة، بتسخير وسائل إعلامها المتاحة للنيل من سمعة هذه الطائفة وتنفير الناس منها بنسبة معتقداتها إلى أُصول فاسدة لا تمتّ الى الإسلام بصلة، أو إظهارها كفرقة أجنبيّة عن المجتمع العربي والإسلامي. ونستعرض فيما يلي باختصار الآراء المختلفة في أصل التشيّع والتي يستهدف منها أصحابها تشويه الحقائق وسترها للحيلولة دون الوصول إليها.

شبهة الأُصول اليهودية:

إنّ أخطر التهم التي توجّه للتشيّع هو زعم أنّ أُصوله يهودية تستمد جذورها من تعاليم عبدالله بن سبأ اليهودي الذي تظاهر بالإسلام في وقت متأخر، ورحل من بلاده ـ اليمن ـ ليطوف الحجاز والشام والعراق ومصر ويبث عقائده الفاسدة بين المسلمين والمتمثلة بالقول بأنّ علياً(عليه السلام)وصيّ النبيّ(صلى الله عليه وآله).

يقول فريد وجدي: وكان ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) في الأصل يهودياً من أهل الحيرة، فأظهر الإسلام وأراد أن يكون له عند أهل الكوفة سوق ورئاسة، فذكر لهم أنّه يجد في التوراة أنّ لكلّ

نبيّ وصياً، وأنّ علياً وصي محمد (١)..وأصل هذه الرواية في تاريخ الطبري (٢)عن طريق سيف بن عمر المطعون في عدالته بشدة من قبل المحدّثين (٣).وقد نقل بعض المؤرخين الذين جاءوا بعد الطبري الرواية كما هي حتى صارت مشهورة. فاعتمد عليها المؤلفون في الفرق قديماً وحديثاً دون تمحيص أو تدقيق، وهي الرواية التي قال عنها ابن حجر: لايصح سندها (٤).ولكنّ المؤلفين لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة، بل ظلّوا يرددونها على مرّ القرون، فقال ابن تيمية: لمّا ذهل أعداء الإسلام من قوة هذا الدين ونفاذ سلطانه وسرعة انتشاره، وقفوا قلقين حيارى، ولم يكن لهم قوة لمقاومته بالسيف، فلجأوا إلى طريق آخر للكيد، وهو

-١دائرة المعارف، القرن العشرين: ١٧/٥.

-٢تاريخ الطبري: ٣٧٨/٣، أحداث سنة ٣٥ هـ.

-٣قال ابن معين: ضعيف الحديث، وقال مرة: فلس خير منه. وقال أبو حاتم متروك الحديث يشبه حديثه حديث الواقدي، وقال أبو داود: ليس بشيء. وقال النسائي والدار قطني: ضعيف. وقال ابن عدي: بعض أحاديثه مشهورة وعامتها منكرة لم يتابع عليها. وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات. قال وقالوا: إنّه كان يضع الحديث. قال ابن حجر: بقية كلام ابن حبان: اتهم بالزندقة. وقال البرقاني عن الدارقطني: متروك. وقال الحاكم: اتهم بالزندقة وهو في الرواية ساقط. انظر تهذيب التهذيب: ٤/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

-٤لسان الميزان: ٢٨٩/٣ ترجمة عبد الله بن سبأ.

الدخول في الإسلام نفاقاً، وهدم بنيان الإسلام من الداخل، وتمزيق وحدة المسلمين بنشر الفتنة، والذي فكّر وقدّر ثم دبّر وخطط له، هو عبد الله بن سبأ وشرذمته (١).ويمكن ملاحظة اتجاهين مهمّين فيما يتعلق بشخصية عبد الله ابن سبأ: أحدهما يحاول أن يلصق بهذه الشخصية مهمة إثارة الفتنة في الساحة الإسلامية، وتحميلها أوزار كلّ المشاكل التي ظهرت بين الصحابة في زمن عثمان بن عفّان معتمدة على رواية الطبري الآنفة الذكر، والتي تعطي لابن سبأ دوراً أُسطورياً غير معقول ولا منطقي، وتجعل من عدد كبير من خيار الصحابة أتباعاً لهذا اليهودي المتستّر بزي الإسلام، بينما يفترض الاتجاه الآخر أنّها شخصية من نسج الخيال، للرواية الضعيفة التي أوردها الطبري عنه.

إنّ بعض المصادر التاريخية تفرض وجود هذه الشخصية ولكنها ترفض الدور الخطير الذي نسب إليها. وذلك لأن الروايات التي جاءت في مصادر الشيعة والسنّة ـ عدا رواية الطبري ـ تؤكد أنّ هذه الشخصية قد ظهرت في فترة خلافة علي(عليه السلام)، وأنّها قد غلت في شخصيته إلى حدّ التأليه، وأنّ ابن سبأ قد وجد أتباعاً له في هذا

-١الصارم المسلول: ٢٤٦/١.

الاتجاه المنحرف، ولكن حركته لم تكن بذات خطورة كبيرة كالتي يصوّرها بعض الباحثين لأغراض في النفس، ولوكان ابن سبأ بهذه الدرجة من الأهمية، لما أهملته كتب الحديث المعتمدة لدى الجمهور وبخاصة الصحاح التي تخلو من أي إشارة إليه. وقد فطن بعض المستشرقين والباحثين إلى أنّ لتضخيم دور ابن سبأ أهدافاً سياسية أُخرى للنيل من الشيعة، يقول فلهوزن: والحقّ أنّ التلقيب بلقب السبئيّة إنّما كان يطلق على الشيعة وحدهم، واستعماله الدقيق ينطبق على غلاة الشيعة فحسب، ولكنه كلمة ذم تطلق على جميع الشيعة على السواء (١).ويقول الدكتور محمد عمارة: أمّا فيما يختصّ بموضوعنا، موضوع التاريخ لنشأة التشيّع فإنّ وجود ابن سبأ ـ على فرض التسليم بوجوده ـ لايصلح دليلاً على أنّ التشيّع ظهر في ذلك التاريخ ..(٢)وحتى الشيعة لا يروون عنه شيئاً من ذلك.. ومن هنا فإنّ عصره لا يصحّ أن يتّخذ بدءاً لتاريخ الشيعة والتشيّع بالمعنى الفني المعروف٣).)

-١الخوارج والشيعة: ٢٨.

-٢قد عرفت سابقاً أنّ التشيع قد بدأ في حياة الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله)، أي في زمان لم يكن فيه أثر وذكر من ابن السوداء.

-٣الخلافة ونشأة الأحزاب السياسية: ١٥٥.

لكن المشكلة أنّ قضية ابن سبأ قد باتت تمسّ بعض عقائد الجمهور التي ساهمت السياسة في تشكيلها. ومن المدهش أن يثور جدل عنيف على صفحات بعض الصحف السعودية ـ كصحيفة الرياض وغيرها ـ بين عدد من الاساتذة والباحثين حول دور ابن سبأ الموهوم، وليس من داع لهذا النقاش إلاّ إصرار بعض الباحثين غير المنصفين لردّ عقائد الشيعة إليه من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإنّ بعض الباحثين المنصفين إلى حدّ ما ينظرون إلى ابن سبأ على أ نّه يمثّل جزءاً من عقيدة الجمهور، إذ يقول الدكتور حسن بن فهد الهويمل: والجدل حول ابن سبأ يأخذ ثلاثة مستويات:

المستوى السائد عند المؤرّخين الإسلاميين، وهو ثبوت وجوده وثبوت دوره في الفتنة بكلِّ حجمها المبالغ فيه.

والمستوى الاستشراقي والشيعي المتأخر، وهو انكار وجود ابن سبأ، ومن ثم انكار دوره، وعندما أقول الشيعي المتأخر فإنّما أُشير إلى أنّ المتقدمين من الشيعة لم ينكروا وجود ابن سبأ، وإن نفوا بعض أثره.

والمستوى المتوسط، وهو إثبات وجود ابن سبأ والتقليل من دوره في الفتنة، وهذا ما أميل إليه..

ويأتي الدكتور الهلابي ومن بعده حسن المالكي مع تيّار

المتشددين المنكرين لوجود هذه الشخصية. ومع قراءتي لما كتبا ووقوفي على الجهد المبذول في التقصيّ، إلاّ أنني لا أطمئنّ لما ذهبا إليه، ولا أرتاح له؛ لأنّ في نسف هذه الشخصية نسفاً لأشياء كثيرة وتفريغاً لكتب تراثية لكبار العلماء من أمثال: شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن حجر، والذهبي وغيرهما، فابن سبأ أو ابن السوداء يشكلّ مذهباً عقائدياً، ويشكّل مواقف أُخرى لوتداعت لكنّا أمام زلزلة تمسّ بنايات كثيرة (١) !من هنا يتبيّن أنّ مسألة وجود ابن سبأ ودوره الأُسطوري يشكّل اتجاهاً عقائدياً عند البعض، يترتب على وجوده الحفاظ على قدسية التراث بكلّ ما فيه من غث وسمين، وإن كانت الحقيقة أنّ مسألة ابن سبأ قد أصبحت سلاحاً في أيدي المناوئين للتشيّع، في محاولتهم إلصاق عقائدهم به ليس إلاّ.

شبهة الأُصول الفارسية:

من المعلوم أنّ دولة بني أُميّة كانت دولة عربية خالصة، اعتمدت سياسة إبعاد الموالي والحطّ من شأنهم إلى أقصى الحدود،

-١صحيفة الرياض ٤ ربيع الأول ١٤١٨ هـ.

ومحاولة تمجيد العرب وتفضيلهم عليهم في كلّ شيء. وكانت مسألة إلصاق تهمة العجمة بخصومها هي إحدى وسائل الحرب الإعلامية التي تتبنّاها، والتي ظلّت مستمرة قرابة قرن من الزمان، ممّا ساعد على ترسيخ هذا الاتجاه الفكري عند عامة الناس.

وبما أنّ الشيعة كانوا القوة المعارضة الرئيسة لحكم الأُمويين، والتي كان خطر انتشار مبادئها يهدد كيان الدولة الأُموية في الصميم، فإنّ وسائل إعلام هذه الدولة لم تكتف بالصاق تهمة انتماء الشيعة إلى أُصول يهودية عن طريق ابن سبأ، بل حاولت أن توحي بأنّ فكرة التشيع فكرة فارسية مستوردة جاءت عن طريق الفرس بعد فتح بلادهم.

وقد ركّز بعض الباحثين المعاصرين على هذه المسألة، بل إنّ بعضهم قد بالغ أكثر، فحاول الجمع بين الأُصول اليهودية والفارسية معاً، يقول أحمد عطية الله:

تشتمل التعاليم السبئية على جذور العقيدة الشيعية التي نبعت من أُصول يهودية، وتأثرت بالمزدكية الفارسية، فرأس هذه الفرقة يهودي يمنيّ الأصل، بينما شاعت بعض العقائد الفارسية المزدكية إبّان الاحتلال الفارسي لبعض أهل الجزيرة العربية، لهذا صادفت السبئية هوىً لدى بعض أهل العراق المجاورين للفرس.

وقال أيضاً: (الحقّ الإلهي) وهي نظرية انتقلت إلى السبئية

والشيعة عامة من الفرس، وتقوم على أنّ علياً هو الخليفة بعد النبيّ(صلى الله عليه وآله) وأنّه استمدّ حقّه في الإمامة من الله، وينتقل هذا الحق بالوراثة الى أهل بيته.(١)

فهذا الباحث يريد أن يربط بين توارث الأئمة(عليهم السلام)للإمامة وبين الأفكار الفارسية التي تسرّبت إلى المسلمين، بحجة أنّ الفرس كانوا يؤمنون بالملكية الوراثية، وهذا الرأي قد ذهب إليه كثير من الباحثين وبعض المستشرقين.

الحقيقة لو أنّنا أخذنا هذا الرأي بنظر الاعتبار، لكان لزاماً علينا أن نقول: إنّ الأُمويين هم الذين قد أخذو بهذا المبدأ، لأنّهم حوّلوا الخلافة إلى ملك عضوض يتوارثه الأبناء عن الآباء، والدولة الأُموية عربية خالصة كما أسلفنا، لذا فإنّ مسألة تأثرهم بهذا التقليد الفارسي أمر مستبعد، وعلى هذا الأساس فإنّ استلهام الشيعة لهذا المبدأ أمر مستبعد أيضاً، بل أكثر استبعاداً إذا ماعرفنا أنّ التشيّع كان عربيّاً خالصاً كما سوف نثبت فيما بعد.

ويعزو بعض الباحثين فكرة التشيّع إلى أنّ أكثر الشيعة الأوائل من الفرس، حيث يقول الشيخ محمد أبو زهرة: وفي الحقّ إننا نعتقد أنّ الشيعة قد تأثروا بالأفكار الفارسية حول الملك ووراثته،

١-القاموس الإسلامي: ٢٤٩/٣.

والتشابه بين مذهبهم ونظام الملك الفارسي واضح. ويزكي هذا أنّ أكثر أهل فارس الآن من الشيعة، وإنّ الشيعة الأولين كانوا من الفرس .(١)

أما أنّ أكثر أهل فارس الآن هم من الشيعة، فهذا صحيح، ولكن فات الشيخ أبو زهرة أنّ معظم أهل فارس قد دخلوا في التشيّع في فترة متأخرة خصوصاً في زمن الدولة الصفوية.

أمّا أنّ الشيعة الأوّلين كانوا من الفرس، فهذا غير صحيح، فإنّ استقراء التاريخ يثبت بشكل قاطع أنّ الشيعة الأوائل كانوا في جلّهم من العرب الأقحاح، وقد أثبت ذلك المؤلفون القدماء، حيث يظهر أنّ التشيّع كان منحصراً في مناطق محدودة من بلاد فارس، وكانت بدايته في مدينة قم، مع العلم أنّ أهل قم كانوا من العرب وليسوا من الفرس!

يقول ياقوت الحموي عن مدينة (قم): إنّها مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها، وأوّل من قصدها: طلحة بن الأحوص الأشعري..وأهلها كلّهم شيعة إمامية، وكان بدء تمصيرها في أيّام الحجاج بن يوسف سنة (٨٣ هـ).. ولما انهزم ابن الأشعث ورجع الى كابل منهزماً كان في جملة أُخوة يقال لهم: عبد الله والأحوص

١-تاريخ المذاهب الإسلامية: ٤١/١.

وعبد الرحمن واسحاق ونعيم، وهم بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعري، وكان متقدم هؤلاء الأُخوة عبد الله بن سعد، وكان له ولد قدريّ في الكوفة، فانتقل منها إلى قم وكان إمامياً، وهو الذي نقل التشيع إلى أهلها فلا يوجد بها سنيّ قط (١).كما ويثبت الحموي أنّ التشيع لم يدخل مدينة الري إلاّ في زمن المعتمد العباسي، حيث يقول: وكان أهل الري أهل سنّة وجماعة، إلى أن تغلب أحمد بن الحسن المادراتي عليها، فأظهر التشيّع وأكرم أهله وقرّبهم، فتقرب الناس إليه بعد تصنيف الكتب في ذلك، فصنّف له عبد الرحمن بن أبي حاتم كتاباً في فضائل أهل البيت وغيره، وكان ذلك في أيام المعتمد، وتغلّبه عليها في سنة (٢٧٥ هـ).(٢)

والمقدسي يؤكد أنّ الغالب على أهل فارس هو المذهب الحنفي والشافعي، ولم يشر إلى وجود للتشيع بينهم في زمنه، حيث يقول: ولم أر السواد الأعظم إلاّ من أربعة مذاهب: أصحاب أبي حنيفة بالشرق، وأصحاب مالك بالمغرب، وأصحاب الشافعي بالشاش وخزائن نيسابور، وأصحاب الحديث بالشام ـ وبقية الأقاليم ممتزجون والغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة... وبالكوفة

١-معجم البلدان: ١٥٩/٧.

٢-المصدر السابق: ١٢١/٣.

الشيعة إلاّ الكناسة فانها سنّة ـ وفي الموصل حنابلة وجلبة للشيعة (١).وينقل لنا ابن الفقيه نصاً مهمّاً على لسان محمد بن علي قائد الثورة العباسية على الأُمويين، وهو يوصي أفراد تنظيمه بما يجب عمله، ويقسّم لهم المناطق التي تصلح للعمل فيها لبثّ دعوتهم، فيقول: أمّا الكوفة وسوادها فشيعة عليّ وولده، وأمّا البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكفّ، وتقول: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب أعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارى، وأمّا أهل الشام فليس يعرفون إلاّ آل أبي سفيان وطاعة بني مروان وعداوة راسخة وجهل متراكم، وأمّا مكة والمدينة فقد غلب عليها أبوبكر وعمر. ولكن عليكم بخراسان، فإنّ هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها النحل، وهم جند لهم أجسام وأبدان ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة من أجواف منكرة، وبعد فانّي أتفاءل إلى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق (٢).وقد اعترف الكثير من المستشرقين والباحثين المعاصرين

١-أحسن التقاسيم: ١٤٢/١٣٦.

-٢مختصر كتاب البلدان: ٣١٥.

بهذه الحقيقة، إذ يقول الدكتور عبد الله فياض: أما الأدلة التاريخية التي تؤيد ظهور التشيّع بين العرب وفي بيئة تغلب عليها الصفات العربية، وهي الكوفة، فأهمها:

أولاً: كان أنصار عليّ الذين أيّدوه في حربه مع خصومه يتكوّنون في الغالب الأعم من عرب الحجاز والعراق، ولم نعثر على اسم فرد ذي أهميّة أو قائد كبير من قوّاد عليّ من كان إيراني الأصل.

ثانياً: كان الذين يكتبون للحسين(عليه السلام) يستقدمونه سنة (٦٠ هـ) للكوفة كلهم ـ كما يظهر من الأسماء التي وردت في الكتاب المنسوب لأبي مخنف ـ من زعماء القبائل العربية الساكنة في الكوفة وسوادها حينذاك.

ثالثاً: كان أنصار سليمان بن صرد الخزاعي في حركة التوابين، كلّهم تقريباً من القبائل العربية المعروفة (١).وأكّد على النقطة الأخيرة، المستشرق فلهوزن، حيث قال: اجتمع في النخيلة أربعة آلاف من التوّابين، وكان بينهم عرب من كل القبائل وكثير من القرّاء ولم يكن بينهم أحد من الموالي.(٢)

وحول مسألة الخلط بين اتجاهات الفرس النفسيّة وبين ميولهم

-١تاريخ الإمامية: ٦٨.

-٢الخوارج والشيعة: ١٩٤.

للتشيع، يقول فلهوزن أيضاً: أمّا أنّ آراء الشيعة كانت تلائم الايرانيين، فليست تلك الملائمة دليلاً عليه، بل الروايات التاريخية تقول بعكس ذلك، إذ تقول: إنّ التشيّع الواضح الصريح كان قائماً أولاً في الدوائر العربية، ثم انتقل بعد ذلك منها إلى الموالي (١).وينقل عبد الله الفيّاض عن ماسنيون قوله: إنّ هَمْدان، القبيلة العظيمة الخطيرة ذات الشوكة والقوة كانت شديدة التشيّع٢).)

سبب آخر:

إنّ من الأسباب التي يتشبث بها بعض الباحثين أيضاً لردّ التشيع إلى الأصل الفارسي، هي قضية زواج الإمام الحسين (عليه السلام) من إحدى بنات الفرس، إذ يقول الدكتور مصطفى الشكعة: وهناك برهان آخر يتمثله الذين يقولون بأنّ التشيع بدأ مذهباً سياسياً وليس عقيدة دينية، ذلك هو اجماع الفرس ـ و لايزالون حتى اليوم ـ على التشيع لآل علي. والمنطق في ذلك أنّ

الفرس يعتقدون أنّهم أنسباء الحسين، لأنه تزوج شهر بانو (سلافة) ابنة يزدجر، بعد أن وقعت أسيرة في أيدي المسلمين، ولقد انجبت سلافة عليّاً زين العابدين(رضي الله عنه)، وإذاً فهم أخوال علي، ويمكن الربط بين تحمّسهم

-١المصدر السابق: ٢٤٠.

-٢تاريخ الإمامية، عن خطط الكوفة: ١٦.

لابن ابنتهم وبين تشيعهم، فتشيّعهم والحال كذلك لا يمكن أن يقال إنه تشيّع عقيدة خالصة، بل هو أقرب إلى تشيع العصبية منه إلى تشيّع العقيدة، وتشيع العصبية يساوي تشيّع السياسة، ففكرة التشيّع من ناحية الفرس على الأقل فكرة سياسية خالصة، بل إنّ بعض الفرس قد أعلن انتصاره لعليّ زين العابدين لما يربط بين الفرس وبين بيت الحسين من نسب (١)!إنّ ممّا يؤخذ على كلام الدكتور الشكعة، هو أنّ الشيعة ليسوا كلّهم من الفرس وحدهم حتى يمكن تقبّل تحليله هذا، فإذا كان الفرس يدينون بتشيّعهم إلى رابطة الخؤولة، للنسب بينهم وبين علي بن الحسين وأبيه الحسين(عليه السلام)، فماذا نقول عن الشيعة من غير الفرس، وخاصة العرب الذين كانو يمثّلون لبّ التشيّع قبل دخول الفرس فيه؟!

ومن ناحية أُخرى، فلو كان زواج الحسين(عليه السلام) من سلافة الفارسية هو الدافع للفرس لاعتناق مذهب التشيع، فإنّ الحسين(عليه السلام)لم يكن وحده الذي تزوج من أميرة فارسية، فقد كان هناك آخرون أيضاً تزوجوا من الأميرات الفارسيات اللواتي أُسرن وجلبن إلى المدينة، فإنّ عبدالله بن عمر قد تزوج أُخت سلافة وأولدها ابنه

-١اسلام بلا مذاهب: ١٧٣.

سالماً، وإذا كان الحسين (عليه السلام) ابن خليفة المسلمين، فإنّ عبد الله بن عمر كان ابن خليفة المسلمين عمر بن الخطاب السابق في خلافته على خلافة عليّ (عليه السلام).

كما وتزوج محمد بن أبي بكر الأُخت الأُخرى لسلافة وأولدها القاسم الفقيه المعروف. فضلاً عن أنّ محمد بن أبي بكر كان ابن خليفة أيضاً، وأبوه أسبق من أبي عبد الله بن عمر أيضاً في الخلافة.

وقد تمّ زواج الثلاثة في زمن عمر بن الخطاب (١).من هنا نرى أنّ هذه الحجة داحضة أيضاً، ولا يمكن حمل تشيّع الفرس لهذا السبب غير المنطقي.

-١وفيات الأعيان: ٤٥٥/١ ط بولاق.

الخاتمة:

لقد تبيّن من كلّ ما سبق أنّ بذرة التشيع قد ولدت في زمن النبيّ(صلى الله عليه وآله)، وهو الذي غذّاها ونمّاها باشادته المستمرة بعلي بن أبي طالب(عليه السلام)، ودعوته الناس للالتفاف حوله وإخبارهم بأ نّه على الحقّ، وأنّ شيعته هم الفائزون.

والوصيّة لعليّ(عليه السلام) ليست من مدّعيات عبد الله بن سبأ، بل هي نص ثابت للنبي(صلى الله عليه وآله)،منذ بداية الإسلام، وقيل عبدالله بن سبأ الموجود أو الموهوم، وقد أدرك الصحابة ذلك من خلال سؤالهم النبيّ(صلى الله عليه وآله)عن وصيّه وإخباره لهم بذلك، حتى اشتهر أمير المؤمنين عليّ(عليه السلام) بهذا اللقب (أي الوصي)، وتغنّت به الشعراء، ودخلت هذه المفردة في معاجم اللغة كلقب له(عليه السلام).

قال ابن منظور: وقيل لعليّ (عليه السلام) وصيّ (١).وقال الزبيدي: والوصيّ، كغني: لقب عليّ(رضي الله عنه) (٢).واستشهد ابن أبي الحديد بعشرات الأبيات التي قيلت من قبل عدد من الصحابة والتي تثبت لقب الوصيّ لعليّ(عليه السلام).(٣)

والشيعة الأوائل كانوا من كبار الصحابة وذوي سابقتهم، وهم

-١لسان العرب: ٣٩٤/١٥.

-٢تاج العروس: ٣٩٢/١٠.

-٣انظر شرح نهج البلاغة: ١٤٣/١.

الذين تمسّكوا بخطّ التشيّع لعليّ(عليه السلام) ونشروه بين أفراد الأُمة.

والشيعة الأوائل كانوا عرباً أقحاحاً. يقول جولد تسيهر: إنّ التشيّع كالإسلام، عربيّ في نشأته وفي أُصوله التي نبت فيها.(١)

والذين يحاولون أن يظهروا بأنّ الفرس قد دخلوا التشيّع بهدف هدم الإسلام واعادة الديانة المجوسية الى سابق عهدها، فإنّ عليهم أن يتذكروا أنّ معظم أئمة أهل السنّة كانوا من الفرس، كالبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وأبي حنيفة وغيرهم من المحدّثين والفقهاء، فلو كان غرض الفرس هو هدم الإسلام، فينبغي أن يكون غرض أُولئك الأئمة من أهل التسنّن هو نفس الغرض إذا ما جارينا أُولئك في دعواهم.

لكن الحقيقة التي لا مِراء فيها هي أنّ التشيّع إنّما يمثّل خطّ الإسلام الأصيل البعيد عن الانحراف، والذي ظلّ يواجه هذه التيارات المشبوهة على مرّ الأيام، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

والحمدلله ربّ العالمين

-١العقيدة والشريعة في الإسلام: ٢٠٥.

مصادر الكتاب

١ـ لسان العرب لابن منظور

٢ـ السيرة النبوية أحمد زيني دحلان

٣ـ السيرة الحلبية لبرهان الدين الحلبي

٤ـ المغازي للواقدي

٥ـ مسند أحمد (أحمد بن حنبل)

٦ـ صحيح البخاري لمحمد بن اسماعيل البخاري

٧ـ صحيح مسلم (مسلم بن الحجاج القشيري)

٨ـ سنن ابن ماجة لابن ماجة القزويني

٩ـ المصنف لابن أبي شيبة

١٠ـ المسند للحميدي

١١ـ المسند لأبي يعلى

١٢ـ الطبقات الكبرى لابن سعد

١٣ـ تاريخ اليعقوبي لابن واضح اليعقوبي

١٤ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير

١٥ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي

١٦ـ كنز العمال للمتقي الهندي

١٧ـ أنساب الأشراف للبلاذري

١٨ـ تاريخ دمشق لابن عساكر

١٩ـ مختصر تاريخ دمشق لابن منظور

٢٠ـ المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري

٢١ـ جامع الترمذي (الترمذي)

٢٢ـ سنن النسائي لأحمد بن شعيب النسائي

٢٣ـ سنن الدارمي (الدارمي)

٢٤ـ الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي المكي

٢٥ـ مجمع الزوائد لنورالدين الهيثمي

٢٦ـ فيض القديرللمناوي

٢٧ـ حلية الأولياء لأبي نعيم

٢٨ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي

٢٩ـ ذخائر العقبى للمحب الطبري

٣٠ـ الرياض النضرة للمحب الطبري

٣١ـ أُسد الغابة لابن الأثير

٣٢ـ أسباب النزول للواحدي

٣٣ـ السنن الكبرى للبيهقي

٣٤ـ السيرة النبوية لابن هشام

٣٥ـ المعجم الكبير للطبراني

٣٦ـ البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي

٣٧ـ مصابيح السنّة للبغوي

٣٨ـ مشكاة المصابيح لسبط ابن الجوزي

٣٩ـ تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي

٤٠ـ الفضائل لأحمد بن حنبل

٤١ـ مسند الطيالسي (الطيالسي)

٤٢ـ تفسير الطبري لابن جرير الطبري

٤٣ـ الأموال لـ (أبو عبيد)

٤٤ـ المنتظم لابن الجوزي

٤٥ـ المعجم الأوسط للطبراني

٤٦ـ الاستيعاب لابن عبدالبر

٤٧ـ الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي

٤٨ـ معرفة الصحابة لأبي نعيم

٤٩ـ شرح المواهب اللدنية للزرقاني

٥٠ـ فرائد السمطين للحموئي

٥١ـ نظم درر السمطين لجمال الدين الزرندي

٥٢ـ الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي

٥٣ـ إحياء علوم الدين للغزالي

٥٤ـ كنوز الحقائق للمناوي

٥٥ـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني

٥٦ـ الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر العسقلاني

٥٧ـ كفاية الطالب للكنجي

٥٨ـ المناقب للخوارزمي

٥٩ـ وقعة صفين نصر بن مزاحم المنقري

٦٠ـ الدر المنثور للسيوطي

٦١ـ خطط الشام لمحمد كرد علي

٦٢ـ النظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح

٦٣ـ دائرة القرن العشرين لفريد وجدي

٦٤ـ لسان الميزان لابن حجر العسقلاني

٦٥ـ الصارم المسلول لابن تيمية

٦٦ـ الخوارج والشيعة لفلهوزن

٦٧ـ الخلافة ونشأة الأحزاب السياسية للدكتور محمد عمارة

٦٨ـ تاريخ المذاهب الإسلامية لمحمد أبو زهرة

٦٩ـ معجم البلدان لياقوت الحموي

٧٠ـ أحسن التقاسيم للمقدسي

٧١ـ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه

٧٢ـ تاريخ الإمامية للدكتور عبدالله فياض

٧٣ـ إسلام بلا مذاهب للدكتور مصطفى الشكعة

٧٤ـ وفيات الأعيان لابن خلكان

٧٥ـ تاج العروس للزبيدي

٧٦ـ العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيهر